



ميرنا المهدي



دليل جدي



لقتل
الأوغاد



رواية



ميرنا المهدي

دليل جدتي

لقتل
الأوغاد

رواية





alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣

© ميرنا المهدي ٢٠٢٣

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فيو من قبيل المصادفة.

المهدي، ميرنا

دليل جدتي في قتل الأوغاد: رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

٢٤٨ ص: ٢٠ سم.

تدمك: 9789778648065

١- القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٠٢٦ / ٢٠٢٢

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

تم تجييز هذه النسخة بواسطة: أشرف غالب



جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضاد الرسمية على
تطبيق تيليجرام:

تمّ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بواسطة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتميه قريحتك الثقافية.



روايات ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرامة

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لوز مر - تحقيقات نوح الألفي ٢

دليل جدتي لقتل الأوغاد

إهداء

إلى الذين أتمنوني على قصصهم وشاركوني تجاربهم بصدق،
ولكن امتنعوا عن أن يشاركوا العالم أسماءهم وحقائقهم
ما عانوه، أكتب هذه الرواية من أجلكم، يا أشجع من
عرفت، عسى أن نُحدث فرقا.

يؤكد خبراء علم النفس الحديث أن الإنسان يمر بسبع
مراحل نفسية قبل أن يتمكن من التغلب على حزنه.



المرحلة الأولى

الصدمة

١

عيسى

(ليلة الجريمة)

حين كنت في الخامسة من عمري، صدمتني بتول بمعلومة
أن جدتنا قتلت زوجها الثاني.
همست إليَّ حينها بنبرة جادة:

- في عام ١٩٧٥، الجدة نصره سممت طعام زوجها.
إياك أن تزجها وإلا سممتك مثله.

حتى الآن، أجهل إن كانت بتول مارست دور الأخت
البكرية التي تحترف إخافة أصغر أخويها، أم أن جدتي
نصره قتلت زوجها الثاني بالفعل!

لم أجرؤ على مواجهة جدتي، بالطبع. اكتفيت وقتها
بسؤال أبي عن الأمر، فصاح فيَّ:

- أمي كانت بطلة حرب! إياك وتكرار تلك الترهات يا
عيسى، فتى أحمق!

أذعنت لأمره كالعادة، ولم أكرر أمامه ما قالته بتول،
بل إنني نسيت الموضوع كلياً، حتى صدمتني أحداث اليوم
الذي كانت خاتمه لعينة كبدائته.



وقفت خلف جدتي وهي تفتح باب غرفة الاستوديو العازل للصوت، فوجدت أمامي جثة مسجاة على ظهرها. بالطبع، لم أشك في غير الجدة نصره.

ليس فقط لأنها الوحيدة من عائلتنا التي تملك سلاحاً تحترف استعماله منذ أيام شبابها، بل لأنها فور أن رأت الجثة، ربت على ظهري وقابلت نظراتي المرتابة بابتسامة حنون وكأنها تقول لي: «جثة هذا الوغد هي هدية تفوقك بالثانوية العامة، اسعد يا عيسى!».»

لا أنكر أن رؤيتي له وهو ميت كانت أمراً مرضياً للغاية، إلا أنني لست سعيداً.

لقد أخبرتهم قبل ذهابنا إلى قسم قصر النيل، إن كانوا حقاً سيقتلونه الليلة، فلا يجوز أن يطلق غيري عليه الرصاص، ولكن يبدو أنهم استغلوا غيابي ليمارسوا العادة الأقرب إلى قلوبهم؛ تجاهل رغباتي.

كانت غرفة الاستوديو في حالة من الفوضى.

ليس وكأنها كانت مرتبة قبل مقتله، ولكن فاحت منها رائحة الدماء، وسقطت ساعة الحائط على الأرض بجوار حاسوبه المحمول المحطم، وانقلب الكرسي على الطاولة أسفل الزجاج العازل للصوت، وتمزقت بطانة الحوائط القديمة.

يبدو أن الأحق حاول كسر الزجاج ليهرب من الغرفة التي حبسناه فيها، ثم مزق بطانة الحوائط الحمراء، كي يضعف قدرتها على عزل الصوت، فيسمع الجيران صراخه

ويأتوا لنجدته.

كل محاولاته للهرب باءت بالفشل تماماً، كما فشل في كل شيء آخر جربه في حياته البائسة.

نظرت إلى جثته.

كان عارياً، وشعره مبتلاً، والكدمات الزرقاء تفترش بدنه، ولكن استجد عليه ثقب في رأسه موضع الرصاصة التي صرعته.

وقع بصري على خط الدم الذي سال من رأسه، فتذكرت أبشع منظر شهدته في حياتي منذ ثلاثة أشهر.

اهتاجت أمعائي مجدداً، وشعرت بفوران داخلي، وكان كل عصاريتها صعدت إلى حلقي.

فقدت السيطرة على جسدي وتقيأت سوائلاً معدتي الخاوية عند عتبة باب الغرفة.

ربت جدي على كتفي، وظلت تسمي باسم الله وتكبر في أذني.

وددت أن أسألها إن كانت هي من قتله، ولكن منعي من ذلك وجود ضابط مباحث من قسم قصر النيل.

كان قد دخل معنا إلى الغرفة بنية معاينة مسرح الجريمة، إلا أنه صدم أكثر منا حين أدرك أنه لم يعد هنا لإثبات حالة فحسب، لقد أصبح يحقق في جريمة قتل مع سبق الإصرار.

كان الضابط الطويل صاحب الاسم العجيب، منشغلاً

بمحادثة زميله على الهاتف ليطلب منه الحضور إلى الشقة
ومعه رجال المعمل الجنائي، ولكن حين انبته لوهني
وإعيائي، أنهى المكالمة واطمأن عليّ، ثم اقترح أن نخرج
من الغرفة حتى لا نلوث مسرح الجريمة.

جلست على الأريكة في الصالة تجاورني جدتي.

أعطاني الضابط منديلاً تفوح منه رائحة الكاكاو،
وانتظرتني حتى أنظم أنفاسي وأتخلص من رعشة يدي،
وأمسح دموع الوهن التي فرت مني، ثم قال:

- لقد عانيتَ اليوم بما يكفي يا بطل! لا أريد أن أضغط
عليك، ولكن... هل أنت متأكد من أنكم حين حبستموه
في هذه الغرفة كان لا يزال حياً؟

استشعرت شكاً في نبرته واتهاماً في نظراته إليّ.

هكذا، أدركت أنني خلال شهرين فقط تحولت من
مراهق يصارع الاكتئاب إلى مشتبه به في جريمة قتل.



المرحلة الثانية

الاكتئاب

٢

عيسى

(قبل الجريمة بشهر)

جاهدت لأربع ساعات حتى أقنع عقلي بأن يعطي أطرافي إشارة بالنهوض من الفراش.

لا يجوز أن أتأخر على ميعادي الأول.

بدأت غرفتي المظلمة كبطن حوت أسود وحيد، مهما طال بقائي بداخله، سينتهي أمري عاجلاً أم آجلاً بأن يهضم بدني الضعيف بعصارة بطنه المهلكة حتى أفنى من الوجود.

هذا هو الاسم الذي اخترته لاكتتابي؛ الحوت الأسود.

أعتقد أن الأديب الصغير الذي بداخلي هو الذي دفعني إلى تسميته. وددت أن أتبع خطى ج. ك. رولينج التي اخترعت كائناً أسطورياً اسمه «ديمنتور»، ليكون رمزاً في رواياتها لفترة اكتتابها الحاد.

فكرت بالأمس وأنا أحملق إلى السقف بصمت تام، أن أكتب قصة قصيرة بعنوان: «الحوت الأسود: اكتئاب مراهق»، أفرغ فيها مشاعري وأسهب في الحديث عن

صراعي مع قتامة وضراوة الاكتاب، ولكني فشلت في ترك السرير حتى أحضر دفتراً وقلهاً من على المكتب.

السرير، أصبح مؤخرًا مثله مثل كئيبان رمال متحركة، كلما عافت للخروج منها سحبتني إلى أعماقها أكثر فأكثر.

الكثير من التشبيهات الأدبية ولكن النتيجة واحدة، أنا منك القوى ولا أقدر على تسجيل تلك الصور البلاغية في دفتري، وعلى الأغلب ستتوه في حنايا عقلي دون أن أحفظها.

بدأت روتيني اليومي. أزحف وألهث في طريقي من الفراش إلى حمام غرفتي.

كل عضلة ببدي ترهقني وأنا أصلي فروضي.

أسمع طرقعة عظامي وأنا أركع، ثم أجهش بالبكاء مع كل سجود.

يطول الصمت المحيط بي قبل أن يستيقظ أول فرد من أسرتي ويخرج من غرفته. في تلك الأثناء تبدأ فوضى الأصوات التي تدور في رأسي.

أنت ضعيف النفس يا عيسى، أنت هش الإرادة، أنت عديم القيمة. لو مت الآن، لن يفتقدك العالم، العالم لا يبالي بمراهق في السابعة عشرة من عمره.

أتبكي مجددًا يا عيسى؟! لا تستحق كلمة ذكر المكتوبة ببطاقتك الشخصية.

تداخلت الأصوات الضارية بداخلي، حتى لم أعد أعرف

أيها صوت الاكتاب وأيها صوت نفسي الحق!
هل هذه أفكار الاكتاب أم هي نظرتي الحقيقية إلى
نفسي؟

منذ يومين، حاولت مقاومة تلك الأفكار المؤذية التي
تصحبها رغبة ملحة في إلقاء نفسي من النافذة.

تراودني تلك الفكرة مرة كل ثلاثة أيام أو أكثر، لكنها
مجرد خاطرة عابرة، لم أحاول قط تنفيذها.

شغلت أغاني كايروكي، الكئيب منها فقط. أغانيهم
المبهجة المحملة بالوعود والآمال لم تعد تليق بظلمة غرفتي
وكآبة نفسي وآلام روحي.

الأغاني المفرحة لم تعد تشبهني.

تركت صوت الأغاني الحزينة عالياً، عسى أن يغطي على
صوت أفكاري الشرسة.

استجديت ذاتي بأن تذكرني بأي نجاح حققته في أي
لحظة حتى أستعيد قيمتي وثقتي، ولكن بلا فائدة.

حتى نفسي، تخلت عني!

أعرف دائي ودوائي، واليوم سأخذ أولى خطوات
محاولاتي الجادة في تمزيق بطن الحوت الأسود والخروج
منه، ولكن المشكلة أنك حين تعتاد الوحدة، تستلذها.

لا أدري، حتى لو خرجت من بطنه وسبحت من أعماق
المحيط الباردة المظلمة، ووصلت إلى السطح حيث النور
والدفء، هل سأستحسن الحياة خارج فقاعتي؟

أليست قسوة المعيشة هي التي دفعتني إلى الانعزال من البداية حتى استحوذ الاكتاب عليّ؟

أعلم علم اليقين أنني مرهق وأكره وضعي الحالي، ولكنني لم أحب وضعي السابق أيضاً.

لا أريد أن أحسن نفسيّتي فحسب، أريد أن أحسن المجتمع كله.

تحسين المجتمع... هذا الوهم هو سبب انتكاستي من الأساس.

حسناً، ولكن إن تخليت عما أريده، فمن أكون؟ مجرد شخص يتأقلم مع قبح العالم حتى لا يصاب بالاكتاب؟ أريد أن أحدث فرقاً. هذا هدفي، وأنا أسير ما أريد.

لم أجد مكتباً خشبياً أنيقاً ضخماً، ولا مكتبة مراجع عملاقة، ولا حتى شهادات أجنبية معلقة على الحائط.

كانت الغرفة كلها باللون الأزرق السماوي من السقف وحتى الأرضية، فيها كرسيان من نوع ليزي بوي وبضعة مقاعد بين باج ملونة وبساط زاهي الألوان، ثم ثلاثة صغيرة تجاورها طاولة عليها ماكينة الإسبريسو وبضعة مقرمشات وجهاز استريو.

كان هذا لقائي الأول مع ماجد ملاك.

كان رجلاً في منتصف الأربعينيات. يربط شعره الفضي كذيل حصان، ويرتدي قميصاً قطنياً لشخصية بطوط

وشراباً عليه رسومات لشطيرة برجر.

كانت هيئته شبابة وعصرية ولا تتماشى مع الصورة النمطية التي رسمتها له في مخيلتي.

استقبلني عند الباب بابتسامة مرحبة، وقال:

- لن تجد شارلونج. لديّ ليزي بوي ومقعد بين باج، أيهما تفضل؟

- الليزي بوي.

اتجهت نحو المقعد في صمت، بينما سألني ماجد وهو في طريقه إلى الثلاجة:

- عصيراً أم مياهاً غازية؟

- لا أريد سوى الماء.

- ماذا عن الوجبات الخفيفة؟ بسكويت؟ فاكهة؟ رقائق بطاطس؟

- لا أشعر بالجوع. شكراً.

- أفضّل الاستماع إلى الموسيقى؟

- نعم، كلاويكي.

- أستلطف موسيقاهم، أي أغنية تحب؟

كنت سأطلب منه تشغيل أغنية «أنا نجم»، ثم تذكرت أنها تبكيني حد الانهيار.

لن أبكي أمامه.

- آسف، غيرت رأيي، أفضل أن نتحدث دون موسيقى.

- لا داعي للأسف.

جلس على الكرسي المقابل لي، وأعطاني زجاجة صغيرة من المياه، تجرعت ربعها. ليس بسبب العطش، بل لأتثبت بأطول مدة ممكنة من الصمت.

ارتخى في مقعده وثنى ساقي أسفل الأخرى. لم يكن يمسك مسجلاً ولا دفترًا لتسجيل الملاحظات، بل بسط كفيه فوق فخذه وظل ينظر إليّ بابتسامة تخلو من التفحيص والتدقيق المقلق حتى سألتني:

- هل أتيتَ إلى هنا بإرادتك يا عيسى؟

- نعم، أجبرت أهلي على الموافقة. أنا في حاجة إلى المساعدة.

- أهلك عارضوا رغبتك في المجيء؟

- ليس كلهم، أبي لا يرى سبباً حقيقياً كي أستمر في الحزن والانعزال عن المجتمع لشهر كامل دون نوم أو طعام، أعني، بالقليل من كليهما. لست مضرباً عن الطعام، أنا فقط... لم أعد أملك شهية للأكل. لو لم تتدخل جدتي وبتول وتتصدى لتعنت أبي لما تمكنت من المجيء.

- بتول؟

- أختي البكرية. لديّ شقيقتان، بتول ومريم. مريم عرفت اليوم أنني هنا، شعرت بالذنب لأنها تقضي شهر العسل مع ييجو بينما أنا أعاني هنا، هي أكثر شخص

حساس بيننا. تجلد ذاتها كثيراً، ورثت هذا عن أمي،
تخافان حديث الناس وظنهم فيهما.

- ماذا عنك؟ ألا تخاف حديث الناس؟

- لا أدري، لم أعد أفهم موقفي تجاه المجتمع بعد ما
حدث.

- ماذا حدث؟

- هناك واقعة أصابتني باكتئاب جعلني آتي إلى عيادتك يا
دكتور ماجد.

- لا ترهق نفسك بالألقاب. أنا ماجد ملاك وأنت عيسى
شرف الدين، اتفقنا؟

- حسناً.

- ما الذي دفعك إلى الاعتقاد بأنك مصاب باكتئاب؟

- أجريت اختباراً مجانياً على الإنترنت، وكانت النتيجة
أنني مكتئب وفي حاجة إلى دعم نفسي. بتول ساعدتني
على البحث عن أخصائي نفسي مناسب لعمرى. لكن في
الواقع، مايكل صديقي هو الذي رشحك، أثق به.

- حسناً، اسمح لي أن أعود إلى الوراثة قليلاً. ذكرت واقعة
أصابتك بالاكتئاب، هل تشعر بأنك مستعد للحديث عنها
الآن؟

- نعم، نعم. هذا سبب قدومي. أود الحديث مع مختص،
أنا في حاجة إلى التكلم عما جرى مع فرح جبران، لا شك
أنك سمعت عن تلك الواقعة.

- لكلِّ منا نسخة مختلفة من كل حكاية، أفضل أن أسمع نسختك.

- حسناً. أنا وفرح كما بالصف نفسه منذ الروضة، كان بيننا هذا التنافس الدراسي؛ مَنْ سيكون أمين الفصل، من سيكون الأول على دفعته، من سيكسب مسابقة الكتابة الإبداعية لهذا العام. كما نمقت بعضنا، نستفز بعضنا، اثنان يتنافسان بنزاهة من أجل التميز العلمي، وكان الجميع يترقب أينما سيحصل على أعلى درجات في الثانوية العامة. ليلة امتحان اللغة العربية، نمت مبكراً حتى أحصل على ثماني ساعات كاملة من النوم. في الصباح، وجدت رسالة على الواتس آب من رقم غريب تحتوي على صور فقط. توقعت أن أستاذي أرسل إليّ بعض الملاحظات لمراجعتها من رقم غريب، فسمحت للصور بالتحميل، وكانت النتيجة أنها صور لفرح وهي...

وجدت مشقة في نطق الكلمة، شعرت بأني أغتابها أو أخوض في سمعتها، فأخذت أهرق قلمي وأغرس أصابعي في جلد المقعد الوثير، حتى قال ماجد:

- لا بأس، أعرف أي نوعية من الصور تقصد.

- لقد صدمت. لم أرَ فرح يوماً تحدث أي صبي أو تتعامل بطريقة خليعة معنا، فلم أتوقع قط أن أرى لها صوراً، صوراً من هذه النوعية... كنت متوتراً بما يكفي بسبب الاختبار، فلم أفعل شيئاً سوى أنني حظرت صاحب الرقم الغريب وخرجت من غرفتي، ولكنني وجدت أمي تقف في المطبخ ممسكة بهاتفها وهي مشدوهة

وتضع يدها على فمها. فهتت على الفور أن الصور وصلت إليها هي أيضاً. بمجرد أن خطوت داخل المدرسة سمعت همسات الجميع؛ الطلاب، المعلمين، أولياء الأمور عند بوابة المدرسة. الكل يتحدث عن صور فرح. تملصت من التورط في الحديث عن الأمر، لدينا امتحان مادة دسمة، يجب أن أراجع كل الملاحظات ثم أصب جلّ انتباهي على ورقة الأسئلة، ولكن دخول فرح إلى حوش المدرسة جعلني أنسى المراجعة. صبغت حمرة البكاء عينيها ورأيت على وجهها آثار الصفعات. أحترف التعرف على آثار الصفع. لأول مرة أراها خائفة تلتفت حولها. فرح كانت شديدة الغرور، تضرب الأرض بكعبها وترفع رأسها بشموخ. هذا الصباح، لم ترفع عينيها عن الأرض، ولكن ما كادت تتوغل في الحوش في طريقها إلى قاعة الامتحانات حتى مرت بجوار زميل قدر صفع مؤخرتها ثم ناداها بـ«العاهرة». فعل هذا أمامنا جميعاً.

- كيف كان رد فعل المدرسين؟

- صاح فيه مدرس الكيمياء وأمره بالتوجه إلى قاعة الامتحان فحسب. ولكن فرح انهارت، ألقت أوراقها وكتبها أرضاً وخرجت من المدرسة تبكي وأنا...

شعرت بمرارة في حلقي، وطافت الدموع على سطح مقلي، ولكنها لم تنهمر على خدي بعد.

- يمكنك أن تبكي.

- لا أريد... أنا بخير. أنزعج كلما تذكرت أنني لم أقل

لها شيئاً. تركتها لتغيب عن الامتحان. صدقني، لم أفعل ذلك لأشعر بالتفوق العلمي عليها، عجزت عن أن أكون إيجابياً. بتول تقول إننا لا نملك جميعاً سرعة البديهة أو فطرة التصرف السليم تحت الصدمة، ولكنني عوضت هذا الموقف. نصحتني بتول أن أتصل بفرح، بل وحفظتني ماذا يجب أن أقول لها كي أدمعها نفسياً، ولكن يبدو أنها غيرت رفقها. بحثت بتول عن عنوانها واتجهت معي لزيارتها ولنصحها بأخذ إجراء قانوني ضد من سرب هذه الصور، ولكن لم يفتح لنا الباب. ربما تركت بيتها، ربما لم ترد أن ترى أحداً. لا أعرف. استمر اختفاؤها حتى آخر يوم بالامتحانات. في الليلة نفسها كان زواج شقيقتي مريم بجارنا يجو. انشغلت بزفافها وسفرها ثم تمحست للتخطيط لإجازة الصيف بعد معركة امتحانات الثانوية. في اليوم الأول من الإجازة، اجتمع الفصل كله فوق سطح بيت أحد أصدقائنا، احتفالاً بنهاية الامتحانات. ما زالت فرح حديث الفصل. كنت أراهم يعلقون على الصور بأفضع التعليقات الجنسية.

- ما رأيك فيما قالوا؟

- رأيي أنهم حفنة من الخنازير الضارية على رأي بتول. كانوا يتحدثون وكأنها عارضة بمجلة بلاي بوي، وليست زميلة معنا نعرفها منذ أن كانت بالرابعة من عمرها. أعلم أنني محظوظ لأنني تربيت في منزل كله نساء لذلك أفهم مشاعرهن وحقوقهن، ولكن هناك فرقاً بين أن تكون نسوياً مثقفاً، وأن تكون لديك أدنى معايير الإنسانية. لقد



نهشوا فرح بكلامهم، وقال أحدهم إنه عثر على رقم هاتفها الجديد، وطلب منها أن تحضر إلى الحفل بقميص نوم مثل الذي ارتدته في إحدى صورها المسربة.

شعرت بالاختناق، فشربت المزيد من الماء، ثم أخذت نفساً عميقاً وأردفت:

- لبت فرح الدعوة وأتت إلى الحفل ترتدي سترة بيضاء بسحاب طولي وغطاء رأس. كانت في حالة يرثى لها. بمجرد أن صعدت إلى السطح توقف الجميع عما كانوا يفعلونه وهدقوا إليها. كان شعرها مخلوقاً كلياً ولديها كدمات في وجهها، وعيناها تلمعان بالدموع. اقتربت من السور حيث كنت أقف وصعدت فوقه حتى يراها الجميع، ثم قالت لنا هذه الصور ليست صوري، جميعكم تخليتني، لن أسامحكم أبداً، ثم...

سالت دموعي فمسحتها سريعاً بظهر يدي، وأسرعت بإتمام القصة وكأنني في سباق لإنهاء حديثي قبل أن أستسلم للبكاء.

- ابتسمت لي. لا أعرف لماذا. لم تبسم لي من قبل! ثم قفزت. كانت قريبة مني للغاية فتمكنت من الإمساك بها من غطاء رأس سترتها. كانت هناك لافتة بارزة ضخمة لمكتب حمامة أسفل السور، مما عرقل سقوطها مباشرة. أخذت أصبح فيها لا تتحركي، لقد أمسكت بك، سأنقذك. ولكنها وبدون لحظة من التفكير فتحت سحابها حتى تفر من الشيء الوحيد الذي يربطها بالحياة. سقطت على ارتفاع أربعة عشر طابقاً. ركضت حيث المصعد، يجب

أن أنزل لأغطيها، لا يجوز أن يراها الناس في وضع كهذا. وقفت عند جثتها. شُج رأسها وتناثرت أجزاء من مخها فوق بركة من الدم على الرصيف. غطيتها سريعاً بسترتها وبقميصي ثم جلست القرفصاء بجوارها، فقط أحدق إليها. لم أرد ذلك، لم أرد أن أطيل النظر إليها ولكنني عجزت عن النظر بعيداً. لا أعلم، لا أعلم لماذا بقيت أشاهدها حتى أتت الشرطة والإسعاف! ربما لأنني خفت من أن يصورها أحدهم وينشر هذا المشهد فيراه أهلها. ولكن خلال ساعات قليلة اكتشفت أنني فشلت في ذلك. يبدو أن في الفترة من نزولي من السطح وحتى وصولي إليها تمكن أحد المارة من تصويرها. ما الدافع وراء تصوير جثة صبية في السابعة عشرة من عمرها غارقة في دمها؟ توقعت أن الجميع سيسبون من نشر الصورة على مواقع التواصل الاجتماعي ولكنهم كانوا يسألونه، لماذا وضعت لاصقاً لقلب أحمر على الصورة عند منطقة ثديها؟ هل كانت عارية؟ لماذا خلعت ثيابها قبل أن تنتحر؟ هل وجدها أبوها في وضعٍ مخليٍّ فقفزت من النافذة على الفور؟ انقسمت التعليقات بين المنادين بعدم جواز الترحم على المراهقة المنتحرة، وبين سب أهلها وخريجي مدارس اللغات الأجنبية والتسبب الذي تعيشه تلك الطبقة، حتى قادهم بعدهم عن الله إلى الانتحار عرايا، فبعثوا على هذه الصورة أمام الخلق أجمعين. رددتُ على كل التعليقات. سببتهم أولاً ثم فسرت لهم أنها لم تنتحر عارية، لقد انخلعت عنها سترتها لأنني جذبتها منها وحاولت إنقاذها من الموت. كانت إجابة أحدهم، وكيف لتلك العاهرة ألا ترتدي

فانلة أسفل سترتها حتى تستر بدنها في لحظة الموت!

ضحكت ضحكة عصبية لا تليق بقتامة الموقف، ثم أكلت الإسهاب في الحديث:

- لم يُقم لها أهلها عزاء. ولكن نشر أبوها على الفيسبوك تقرير الطب الشرعي الذي يفيد بأن ابنته عذراء لم يُفرض غشاء بكارتها. وبعدها ببضعة أيام، نشر تقرير المعمل الجنائي الذي يفيد بأن صورها الإباحية التي سربت كانت مفبركة، وأن الفاعل هو جارهم الدكتور مصطفى الذي أراد أن يقيم معها علاقة جنسية، وحين صفعته وسبته وبصقت في وجهه أقسم أن يجعلها تدفع الثمن غالياً وأن يشوه سمعتها. شاركت المنشور الخاص بخبر صورها المفبركة حتى يشهد الجميع على براءتها، فوجدت زميلاً معي بالفصل يرأسني بشكل خاص ويقول إنه يعرف أن فرح بريئة. سألته كيف عرفت والشرطة نفسها لم تصرح بالأمر إلا منذ بضع ساعات؟ قال إن ليلة انتحارها، فر ثديها الأيسر من صدريتها بسبب الارتفاع الذي سقطت منه، فاكتشف أن صدرها صغير، وأن لديها شامة سوداء بارزة فوق حلمتها، في حين أن الصور العارية المسربة لها كان يبدو فيها ثديها كبيراً جداً ولا توجد عليه أي شامات. سألته أهذا ما فعلته حين رأيت جثة زميلتك المنتحرة؟ لقد تفسخ لحمها، وعظامها المكسورة اخترقت جلدها، ومخها تناثر على الأسفلت، بينما أنت تتأمل أدق تفاصيل ثديها الذي كشفه الموت؟! أجبني، كم مرة يتاح للشباب منا أن يرى ثدياً عارياً على أرض الواقع، ألسن رجلاً يا عيسى!

فرح كانت الفتاة الأنجب والألمع في المدرسة برمتها. كانت تجيد ثلاث لغات، وتقرأ لديكارت ولجان جاك روسو، وتحترف لعب التنس، وتطمح إلى أن تصبح محامية دولية مختصة في شؤون اللاجئين. الآن، لا نذكر عنها سوى أن لديها شامة بارزة فوق حلمة ثديها الأيسر الصغير.

لم أعد أحتمل المزيد من الكبت، أجهشت بالبكاء. قَرَّبَ ماجد علبة المناديل نحوي فسحبت منديلاً، ولكن كلها مسحت دموعي فاضت أكثر.

أخذت أتكلم وأنا أبكي، ولا أعرف إن كان فهم شيئاً مما أنوح به!

- أنا من جذبها من سترتها وكشف عورتها أمام الجميع. لم أعبر عن فاجعتي وقتها، لم أبك، لم أشك، لم أتحدث في الأمر. بتول ومريم وجدتي حاولن أن يجعلني أتكلم وأعبر عن مشاعري، ولكنني لم أقدر على ذلك. قلت لعائتي إنني بخير. تظاهرت بالاستمرار في حياتي كما كانت حتى رأيت فيديو لفتاة تُذبح أمام جامعتها.

- نيرة أشرف؟

- نعم، بمجرد أن رأيته تنازع الموت ودمها يفيض والجميع يشاهد ذبحها دون تدخل، ثم رأيت التعليقات نفسها على الفيديو؛ لا إله إلا الله، انظر كيف ستبعث إلى ربنا وهي متبرجة لا ترتدي الحجاب! أهذا ما يشغل بالكم؟ طالبة جامعية قتلت في وضخ النهار في شارع مزدحم وسط أبناء وطنها، وأنتم تأسفون لأنها ذبحت دون حجاب؟! عادت

إليّ تفاصيل انتحار فرح وانتابتي نوبة هلع. فقدت أنفاسي وارتعدت أوصالي وانتفض بدني كله وأخذت أصبح حتى نبح صوتي. أمي وجدتي قرأتا عليّ القرآن وبتول شجعتني على تفرغ مشاعري، ومن وقتها لم أعد... لم أعد قادرًا على منع نفسي من البكاء، لم أعد قادرًا على ترك الفراش والخروج من الغرفة. أغلقت كل حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي. أود أن أعتزل المجتمع، بل أود أن أعتزل الحياة كلها. ما حدث لفرح ونيرة قد يحدث لشقيقتي؛ مريم لا ترتدي الحجاب، هل هذا ما سيقوله الناس عنها إذا ذبحت في الشارع؟ هل سيخلقون مبررات لقاتلها لمجرد أنها أنثى متبرجة؟ حسنًا، ماذا لو انتحرت أنا؟! هل سيبحث الناس عن صوري ويقولون إنه فتى يطيل شعره وينشر الأغاني والشعر واقتباسات من روايات الغرب الكافر، لقد كان بعيدًا عن ربه ولا يجوز الترحم عليه؟ هل سيضطر أبواي إلى التبرير والقسم إنني كنت على الخلق بدلًا من أن يجدا يد المجتمع تحنو عليهما وتؤازرهما وتعزيهما في فقدهما؟ أهذا مجتمع إنساني أم حظيرة وحل؟

زاد بكائي، فتوقفت عن الحديث.

نظرت إلى الأرض وعجزت عن تهدئة مشاعري ومنع ذاتي من البكاء.

لم يتحرك ماجد ولم أسمع أنفاسه، حتى إنني شعرت للحظة بأنه خرج من الغرفة حتى أتم بكائي.

لا أعلم كم مر من الوقت، ولكن انتهى مخزوني من الدموع ففرغت من البكاء.

مسحت أنفي وعيني، ثم قلت:

- آسف.

- لماذا؟

- لأنني أطلت البكاء.

- أهذا أمر يستحق الاعتذار؟

- نعم، إنه مضيعة لوقتك. البكاء لن يغير شيئاً، إنه علامة

الضعف وقلة الحيلة.

- بل هو حق الإنسان، أقالوا لك إنه حق حصري

للنساء؟

- أجل. دخل والدي غرفتي لأنه سمع أنيني، فسألني إن

كنت أود أن يشتري لي صدرية حمراء حتى أرتديها في

أثناء بكائي.

ضحكت. كنت أسرد الموقف على سبيل الدعابة، ولكن

ماجد لم يبتسم حتى!

- لو كان البكاء حكراً على النساء يا عيسى لجعل الله

الدموع مثل المبيض والأرحام، تخص أجساد الإناث

وحدهن. كلنا نملك قنوات دمعية حتى نسرب منها ما يجثم

على صدورنا، إنها رحمة الرب علينا.

هزرت رأسي تأييداً لفكرته.

شربت ما بقي من زجاجة الماء، فنهض ليحضر لي

المزيد، ثم عاد للجلوس أمامي قائلاً بابتسامة حكيمة:

- بماذا تشعر الآن؟

- بالإرهاق، بالحدرد، بالظلم. الظلم هو الشعور المهيمن عليّ مؤخرًا.

- فلنتحدث عن هذا الشعور.

- إنه خائق، ولكنه يسيطر عليّ من قبل حتى انتحار فرح. توجه إليّ بعض الانتقادات وأضطر إلى التعامل معها على سبيل المزاح، حتى لا أبدو رقيقًا وحساسًا أمام أقراني.

- أي نوع من الانتقادات؟

- شعري... في كل مرة يعود أبي من دبي يدعوني بـ«المخنث»، لأنني أطيله حتى منكبي. أجد صعوبة في فهم الرابط بين فحولتي وطول شعري. بحثت على الإنترنت عن حكم إطالة الشعر للرجل، ووجدت أن ذلك مباح، وأن شعر النبي كان يصل حتى منكبيه في أربع غدائر. فقرأت ذلك على أبي. غضب وحلق شعري من المنتصف حتى يجبرني على حلق رأسي كله.

- وما كان رد فعلك؟

- لا شيء، شعرت بالغضب بالطبع، ولكنني لم أتخطّ حدود الاحترام معه. أفهم أنه من جيل مختلف اعتاد الطاعة دون تفكير، ولكنني أكره رغبة الجميع في إجباري على كبت أفكارني لخاطر التمسك بصورة بائدة عن الرجولة. الألوان التي يجب أن يلبسها الرجل، طول شعره، نبرة صوته، أفكاره. كثيرًا ما أكتب منشورات تخص حقوق المرأة فأجد شخصًا غريبًا يسبني وينعتني بـ«النسوي

الهائج» الذي يناصر النساء من أجل مضاجعتهن فحسب! هذا ظلم! أعجز عن إيجاد متنفس أكون فيه على طبيعتي دون الحاجة إلى التأكيد على أنني ذكر ورجل حق.

- هذا مربوط الفرس. نتظر من المجتمع أن يهينا حریتنا، ولكن العكس صحيح. أنت المطالب بتوفير حریتك لنفسك.

- لا أفهم مقصدك.

- فلنقل إنك تضع سماعاتك في أذنيك وتسمع أغنيته المفضلة، إذا قلت لك إن تلك الأغنية لا يسمعها سوى عديمي الرجولة، هل هذا يعني بالتبعية أنك مضطر إلى الإذعان لرأيي والتوقف عن سماع أغنيته المفضلة؟

- لا، لا أظن ذلك.

- الحر الحق ليس في حاجة إلى تأييد الجميع له. الحر يمضي في طريقه وينتبه لأفعاله ويتدبر تصرفاته، حتى لا يؤذي نفسه وغيره ويخالف مبادئه، لقد سيطرت علينا الحاجة الماسة إلى جمع الإعجابات والتعليقات الداعمة بسبب إدمان تطبيقات التواصل الاجتماعي، ولكن العالم الاقتراضي لا يمثل الحقيقة... لست في حاجة إلى مئات التأييدات لتقوم بما يمليه عليك ضميرك. ألم تشعر بهذا الفرق منذ أن أغلقت حساباتك؟

- بلى، صرت بمنأى عن الأفكار السامة.

- تهاني الحارة! أنت في طريقك للتعافي من سُميّات العصر الرقمي. كيف تتخيل مسار جلساتنا المقبلة؟

- ستكتب لي دواء حتى أصير أكثر بهجة و...

- لا توجد أقراص للبهجة يا عيسى، ولكن إليك الأمر،
بين كل الفتيان الذين مروا على هذه العيادة، أنت أكثرهم
وعياً وشجاعة.

- أنا؟ ولكنني لم أفعل شيئاً!

- بل فعلت الكثير، عادة لا يفتح الشباب على الحديث
من الجلسة الأولى، أنت أحرزت تقدماً يتطلب شهوراً
من التعافي، ولهذا، إليك ما سنفعله؛ في نهاية كل جلسة
سأكلفك بمهمة يجب أن تنفذها قبل لقائنا المقبل، ما
رأيك؟

- حسناً، إن كان هذا سيفيدني.

- أنت من سيحدد ذلك. مهمة هذه الجلسة هي الخروج
مع صديق عزيز لتناول الوجبة الأقرب إلى قلبك. ستكتب
لي وصفاً تفصيلياً عن طعم ما ذقته، وديكور المكان الذي
أكلتما فيه، والأصوات التي سمعتها في أثناء ذلك، وملبس
كل ما وقعت يداك عليه، والمشاعر التي اجتاحتك قبل
وفي أثناء وبعد هذه الوجبة.

- هل يجب أن أكتبها في إطار سردي أم أدونها
كمعلومات فردية أم...؟

- لك حرية الاختيار، المهم أن تأكل خارج المنزل برفقة
شخص عنده القدرة على فتح شهيتك.

مریم

(ليلة الجريمة)

لطالما كنت ابنة أبي المدللة.

بعكس حال أي ابن أوسط يهمله والداه، لأنهما يعتنيان
بالكبير ويعطفان على الصغير، كنت أنا الابنة الأكثر
تدليلاً بين أخوي.

أبي كان يقول دائماً: «أنا لم أنجب غير مریم!».

كانت جملة نثر غيرة بتول وعيسى، ولكنها كانت
مستحقة، فلطالما كنت أكثرهما تهدياً وطاعة، لا أجادل
ولا أناقش ولا أعترض، ولكن ما جزاء ابنتهما البارة
الآن؟

طيلة طريق العودة من المشفى لم ينفك أبي عن لعن
اليوم الذي وافق فيه على اختياري.

عاتبني ولامني على كل ما صار، وكأنني لم ألم نفسي بما
يكفي.

- أنتِ السبب يا مریم! اختياراتكِ كلها خاطئة، لا أحد
يدفع ثمن أخطائكِ تلكِ غيري!

غيرك؟!!

أجهل كيف يؤمن أبي بأنه دفع ثمن خطئي، بينما لم
يذق رشفة من الذل والمهانة اللذين تجرعتهما اليوم.

أیظن نفسه ضحية، لأنه تلقى ضربة من كعب بندقية
جدتي على مؤخرة رأسه؟

يا لك من مسكين ومرهف الحس يا أبي! نتعاش مع
ضغط حروب أعمالك دون شكوى، إلا أنك تعجز عن
خوض معركة واحدة في سبيل كرامة أولادك.

يتظاهر بالبأس والشدة ويحدثنا عن قوة تحمل الرجال
ليلاً ونهاراً، ثم ها هو ذا ينهار كلياً في وقت لم نحتاج فيه
إلى شيء سوى دعمه وتماسكه.

لم ينهر والدي كالبشر الطبيعيين، لم يبكِ أو يصرخ داعياً
ربه أن يخفف عنه ابتلاءه، بل عبر عن صدمته بالسب
والتعنيف وبتهامنا بأبشع التهم وكأننا ألد أعدائه.

يظن نفسه فخلاً لأنه يختار الغضب في وقت الضيق، أما
لأن عيسى المسكين يبكي ويكتئب، فيعتبره مخنثاً.

كانت بتول تكرر هذا المصطلح كثيراً، «الذكورية
السامة»، لم أختبر حقيقته إلا اليوم، بعدما رأيت الوجه
القبيح لأبي، بحجة أنه رجل شديد لا يعرف الميوعة.

تجاهلت سبابه لي ودعائه علينا بالموت بأبشع الطرق،
وأخذت أحك حاجبي بعصبية وتوتر مفرط، حتى وصلنا
إلى العمارة، فنزل من سيارتي وصفق بابها بعنف.

لو صفقت باب سيارته بالطريقة نفسها لشنقني في عمود
النور المقابل للجراج!

لمحت سيارة بتول فاستنتجت أنها وجدتي وعيسى عادوا

من القسم.

دخلت إلى العمارة وما زلت أجد صعوبة في المشي بسلاسة، وأشعر بألم بغيض في عضلات نخذي وحوضي. توقف المصعد عند طابق شقة أبي، حيث من المفترض أن نلتقي جميعاً لنعرف مستجدات البلاغ، ولكنني دخلت الشقة ولم أجد أحداً.

كان والدي قد سبقني وجلس على المقعد يخلع حذاءه ويضغط على رأسه وهو يئن ألماً.

ركض كلب بتول الصغير في اتجاهي وهو يهز ذيله، وينبح بحماس ويقفز صوبي بحبة لا تنضب.

حملته وقبلت رأسه، بينما سبه أبي بسبب نباحه المزعج، ثم أخذ ينادي أمي.

- أين أنتِ يا صابرين الزفت؟!!

اتجه صوب غرفة نومهما، وفي يده كيس الأدوية التي وصفها له الطبيب، فسألت نفسي بصوت مسموع:

- أين الجميع؟

- عسى أن يكون الله انتشل أرواحهم جميعاً.

- لم الإصرار على القسوة يا أبي؟!!

- قسوة؟ أصار لسانك لاذعاً مثل أخويك؟

- آسفة، لا أقصد. تعرف مقدار احترامي لك ولكن...

ما فعلته معنا اليوم... رد فعلك تجاه ما صار... لقد صدمت فيك يا أبي، ظننت أنك ستشجعنا على...

- بل أنا الذي صدمت فيكم جميعاً وأولكم أمي، أنتم الذين جلبتم هذه المصيبة لأنفسكم. استغلتم غيابي وخالفتم أوامري. لماذا تصرون على تلويث سمعتي ولومي على كوارثكم؟ لقد سمئت منكم جميعاً. من اليوم، لم يعد لكم أب.

- وهل كان لدينا أب أنفأ؟ لطالما كانت بتول هي رجل البيت.

- يا نمرودة، يا قليلة الأدب! اجعلي بتول تصرف عليكم وتطعمكم وتكسوكم وتعلمكم. اجعلوها ترتحل وتشقى في الغربة لعقدين من الزمان حتى تصيروا مترفين هائنين.

- هل ترى أننا هائنون؟

- كلاً، أرى أنكم حفنة من الجاحدين، سأظل غاضباً عليكم إلى يوم الدين! لعنة الله عليكم جميعاً!

أخذ يسبنا من الصلاة وحتى غرفة نومه، ثم صفق الباب خلفه بعنف.

كنت سأتبعه حتى أكل معه هذا الحديث. لست في حاجة إلى دعمه أو لتأييده على أي حال، فقد تكفلت جدتي وبتول بكل شيء، ولكن لان قلبي وشعرت بأني جرحته بكلامي.

لقد عانيت اليوم بما يكفي، ووالدائي راضيان عني، فماذا سيصيني إذا خاصمني أبي إلى يوم الدين كما يقول؟

أنزلت الكلب أرضاً، وكنت متجهة إلى الطرقة المفضية

إلى غرفة والدي، ولكنني انتبهت لهاتفني المحمول الذي
نسيته على السفرة من صدمة الموقف وضرورة إسراعي
بأبي الجريح إلى أقرب مشفى.

وجدت عشرات المكالمات الفائئة من بتول. اتصلت بها
فأجابني هامة:

- نحن في شقتك... وجدناه جثة هامة. الشرطة هنا.
اصعدي ولا تنطقي بشيء.

أغلقت الخط في وجهي دون سلام كعادتها.

لم أمهل نفسي حتى أتدارك الصدمة، أخذت مفاتيحي
وركضت متأوهة على السلام لثلاثة طوابق حيث شقتي.

فتحت الباب لأجد بتول جالسة في الصلاة على الكرسي
المقابل للأريكة التي تجلس عليها جدتي، ويجاورها أخي
العزیز عيسى، آخر العنقود.

خفت بشاشته وذبلت بهجة عينيه اللتين اختنقت فيهما
الدموع، وتاهت وسامته النضرة بين الكدمات والجروح
التي تملأ وجهه.

بدا كرجل في منتصف عمره فقد كل شيء، وليس
مراهقاً سيتم عامه الثامن عشر بعد أسبوعين، وسيلتحق
بالجامعة ويبدأ حياة مشرقة جديدة بعد شهرين.

كانت بتول تدخن سيجارتها، كالعادة، ومن اللسعة التي
على طرف حجابها ومنظر المرمدة الممتلئة بأعواد السجائر،
فهتت أن هذه ليست سيجارتها الأولى.

شтан الفرق بين اضطرابها وهي تطفئ سيجارتها، وبين هيبة جدتي نصره وهي تنفث دخانها وتنظر أمامها بتأنٍ وتدبر.

أشارت جدتي إليّ بالاقتراب فور أن لمحتني، ثم همست إليّ ورائحة النيكوتين البغيضة تفوح من أنفاسها:

- أنتِ لا تعرفين شيئاً! اذهبي إلى الغرفة، ابكي واندي موتة.

- هل قتلته حقاً؟ ألم تذهبوا إلى...

- نفذي! ابكيه يا بُنتي، ولا تنطقي بحرف بدون أمر مني.

نظرت إلى عيسى حبيبي، كان غائباً عن الواقع.

لم يلتفت إليّ منذ أن دخلت، أو ربما لم يود أن يرى وجهي من الأصل.

هل يلومني مثل أبي؟ هل صار لا يحتمل النظر إلى أخته مريومة التي تخبز له كعكه المفضل؟

لا عتاب عليه، من حقه أن يمقتني. ففعلياً، أنا السبب، أنا المسؤولة عن هذه الفاجعة.

نظرت إلى بتول فهزت رأسها حتى أنفذ أمر جدتي.

في النهاية، ما من عليم بشؤون إخفاء الجرائم مثل الجدة نصره، فقد مر على قتلها لزوجها سبعة وأربعون عاماً دون أن تلقي الشرطة القبض عليها.

لا أود أن أظلمها.

لست واثقة من صحة الأمر، ولكن هذا ما أخبرتني به بتول في طفولتنا، وتكرار تلك المعلومة لنفسي كان الطريقة الوحيدة التي قد أهدئ بها توتري، وأقنع ذاتي بأن جدتي ستخرجنا من هذا المأزق بسلام.

دخلت إلى غرفة الاستوديو، حيث كدت أزهب روحاً منذ بضع ساعات.

كان بالغرفة ضابط طويل، ملابسه نظيفة أكثر من اللازم ويحمل قلباً ودقترًا صغيراً، وينظر في حنايا الغرفة دون لمس أي شيء، ثم يدون ملاحظاته.

بمنتصف الغرفة، أمام التلفزيون وجهاز البلاي ستيشن، رأيت الجثة.

ما زالت علامات ضربي له تفتش بدنه العاري، ولكن منظر تلك الرصاصة في المنطقة العليا من رأسه، أثلج قلبي. شعرت بارتياح لم ينتبني منذ أن نجحت بالثانوية العامة. ابتهجت نفسي ووددت أن أزغرد.

فكرت جدياً في التراجع والخروج من الغرفة. لطالما فشلت في الكذب والتمثيل ولا أجد الآن دموعاً أذرفها أمام الضابط الذي استغرق في التفكير والتدوين، حتى إنه لم ينتبه لوقوفي خلفه بعد.

تراجعت لأخرج، ولكني لمحت ما أوصل قلبي.

تحت طاولة البلاي ستيشن، على بُعد شبر من يد المبت، كانت فردة قرطي الأسود الصغير الذي فقدته هذه

الظهيرة.

بمجرد أن تذكرت كيف ولماذا سقط قرطي من أذني في هذه المنطقة بالتحديد، اجتاحتني مشاعر الحسرة، وانهمرت دموعي بشكل لا إرادي حتى وجدت نفسي أجهش بالبكاء.

انتبه الضابط لصوت أنيني، فالتفت إليّ.

تظاهرت بأنني غير قادرة على الوقوف فألقيت نفسي على الأرض بجوار الجثة، حتى ألتقط فردة قرطي سرّاً.

- البقاء لله. اهدئي، دعينا نخرج من الغرفة.

التقطت القرط الصغير وأخفيته بين أصابعي حتى لا يلمحه الضابط.

كدت أنهض بينما استمرت مسرحيتي الميلودرامية، ولكن تحول الشجن إلى رعب وذعر لحظة أن قبضت الجثة على رسغي.

صرخت فوجدت الجثة تفتح عينيها وتسترد وعيها.

للمحظة، ظننت أن ذلك شُبّه لي بسبب الضغط العصبي المرعب الذي تعرضت له اليوم، ولكنني رأيت علامات الصدمة على وجه الضابط.

اقرب من الجثة العائدة من الموت وتفحص مواضع نبضها ونفسها.

يا له من ضابط أحمق!

كيف لم يتأكد من حالة الجثة فور دخوله إلى موقع

الجريمة؟

اتصل بزميل بدا اسمه مألوفاً لي، وأخبره أن يسرع
بالإسعاف، لم نعد نحقق في قضية قتل، الجثة حية!

يبدو أن الأفلام خدعتنا حين علمتنا أن طلقاً في الرأس
يسبب موتاً فورياً لمتلقيه.

يا نخيبة الأمل! إنها المرة الثانية التي ينجو فيها هذا الحقير
من الموت، اليوم.

اللعين يأبى أن نقتله!

عيسى

(قبل الجريمة بتسعة وعشرين يوماً)

الطاولة صفراء مربعة، الكرسي خشبي أحمر، الأرضية
بيضاء، السقف أزرق تتدلى منه إطارات مرايا مذهبة.
أمامي سبورة سوداء مكتوب عليها بالطباشير الأبيض
وباللغة الإنجليزية:

نحن لا نضيف رسوم خدمة إلى أسعارنا، الأمر يعود إلى
تقديرك.

طريقة ذكية لطلب البقشيش.

أسمع أصوات الشوك والسكاكين تحتك بالصحن
البيضاء اللامعة، أسمع ضوضاء الطهي المعتادة، فأنا أجلس
على بُعد مترين من موقع مطبخ مطعمي المفضل «O's
Pasta».

نتداخل من حولي همسات وغمغمات بلغات أجنبية
مختلفة تقاطعها ضحكات عالية، بعضها سعيد بحق، وبعضها
الآخر مصطنع.

ما زلت أبحث عن اسم فرح وكلمة صور أو انتحار في
حديث أي شخص حتى لو كان من المستحيل أن يكون
على علم بمأساتها.

أشعر بالذنب لمجرد التفكير في أنها مدفونة تحت الثرى،

ووحيدة في قبرها، وأنا المترف المدلل الذي ينتظر صحنًا من المعكرونة بعدما دفعت له أخته ثمانمائة جنيه حتى يبكي أمام مختص.

أقاطع تلك الأفكار السوداوية بتذكير ذاتي بأن هذا ليس صوتي، إنه صوت الحوت الأسود.

أقول لنفسي: أنا في تحسن، لقد ناضلت في السرير لساعة واحدة حتى أخذت القرار أخيرًا بالنهوض.

صحيح أن مايكل مر عليّ وأجبرني على ترك الفراش والنزول معه، ولكن النتيجة واحدة.

اليوم، خرجت من البيت لتناول وجبة شهية بعد شهر كامل لم أر فيه الشارع.

اليوم، لم أرضخ لرغبات الحوت الأسود.

أشغل نفسي بتدوين المزيد من الملاحظات على هاتفي، حتى أتخطى ما تسرب إلى روحي من أفكار اكتئابية، وأتخلص من رغبتني في البكاء للمرة الثانية.

أسمع موسيقى مملة من سماعات المطعم، وأنتبه لصوت مايكل يخفي تجشؤه بعد أن تجرع كوب المياه الغازية على دفعتين.

أعرف مايكل منذ أن كنا نتدرب على السباحة في النادي طيلة المرحلة الابتدائية.

حين كنا بالصف الثاني الإعدادي، ترك التمارين واتجه للعب كرة اليد، فافترقنا وقلت وتيرة التقائنا بالنادي، حتى

انتقل إلى مدرستي منذ عامين فصرنا صديقين مقربين،
يجمعهما مقت كرة القدم، وحب المعكرونة، وأغاني
كايروكي والكثير من الاكثاب الذي نداريه بتبادل
الميمز.

انتهيت من تدوين الملاحظات التي لفتت نظري،
ووضعت هاتفني جانباً، ثم قلت لمايكل:

- كتبت ما يكفي.

- هل ارتحت لماجد؟

- نعم، أحببت قصصه.

- ما زال يرتدي قمصان ديزني؟

- وشرابات مضحكة.

- كانت شراباته أول ما لفت انتباهي حين زرته أول مرة
منذ ثلاث سنوات.

- بدأ اكتابك وأنت في الرابعة عشرة من عمرك؟

- أجل يا مستجد، لم تكن كلمتي الأولى واء، بل
بروزااالك.

- هل أتت جلساته معك بنتيجة؟

- نعم، كانت النتيجة أن قطع عمي المصروف عن أمي
ونعتها بـ«المستهتر»، لأنها تبدد ميراثي على تفاهات.

- لماذا لم تقل لي وقتها؟

- لم نكن صديقين بما يكفي! ولكن لا تقلق، أنا على

ما يرام، لقد عوضتني أمي عن جلسات الدكتور ماجد وصارت تطبخ لي وجبة دسمة كل أسبوع... نحن عائلة تحارب الاكثاب بالمحشي والكباب.

وضع النادل صحنِي معكرونة يجاورهما طبقان أحمران صغيران من جن البارميزان.

انكب مايكل على الصحن بشهية مُعدية، فقد فرغ من الصوم عن الألبان واللحوم منذ أربعة أيام فقط، لهذا، غمس صدور الدجاج في الجبن والصلصة الروزية ثم أكلها بشوق، إلى درجة أنه أغلق عينيه ومد شفثيه وهو يعضغها كأنه يهدي حبيته قُبَلتهما الأولى.

سكبت صحن الجبن على المعكرونة وأكلت.

شعرت للمرة الأولى، منذ أن بدأ اكتثابي، بطعم الأكل دون أن تغزو في مرارة أجهل مصدرها.

كانت سخونة الطعام مناسبة؛ معكرونة الفيتوتشيني مثالية التسوية، الصلصة الروزية طعمها يجمع بين دسامة الجبن والحليب وعصارة الطماطم، ويصحبها المذاق الحامض لحلقات البصل الأخضر الناعمة وثبيلة الدجاج الطازجة. ذابت الأطعمة الغنية في في في تناغم، ميزت طعم كل عنصر عن الآخر.

الطعام شهبي وطيب، ومع ذلك، عجزت عن أن أهناأ به. يأبى عقلي أن يتلقى إشارة الاستمتاع بالأكل.

وصفت الوجبة ضمن ملاحظاتي لليوم، في محاولة لشغل

نفسي عن حقيقة أنني فقدت نعمة كنت أتعامل معها
بأريحية وكأنها لن تفتني أبداً، وهي الاستمتاع بمذاق الطعام.
استمرت في التدوين المفصل حتى قاطع كتابتي اتصال
بهبج، زوج شقيقتي مريم.
- ألو، يا يجو.

- كيف حال أسدي المكتئب؟

- بخير، اشتقت إليك وإلى مريم.

- وأنا أيضاً. لم لا تطلب لي صنناً كصحنك؟ الطعام في
سيوة لا يطاق.

- مهلاً، كيف عرفت أنني...

شعرت بيد تحط على كتفي فالتفت لأجد يجو ومعه
مريم أختي يقفان خلفي.

عانقني وربت على ظهري بشدة وقبل وجنتي، ثم عانقت
مريم باشتياق، فهي الوحيدة التي تحب العناق في أسرتنا
الجافة.

انضمنا إلى طاولتنا بعدما بادلا مايكل التحية.

كان إرهاق السفر جلياً على مريم، بينما لم تظهر آثاره
على ملاح يجو الذي اكتسب سمرة جذابة بفضل تنقلهما
بين شواطئ مصر خلال شهر العسل.

كان يجو في منتصف ثلاثينياته، ولكن له روح وحماس
مراهق يصغرنى أنا شخصياً.

والده سليمان دامس، أشهر ملحنى فترة الثمانينيات. كان يشتهر بملاحه الأجنبية والافتخار بنسله الممتد للباشوات الأترك وعرق أمه، ابنة أحد جنرالات الجيش الإنجليزى.

ورث يىجو عن أجداده الاستعمارىين العيون الياقوتية الواسعة الكحيلة والبشرة البىضاء والشعر الأسود الناعم المسترسل على وجنتيه.

انفصل أبواه فى سن مبكرة، فانتقل للعيش فى كندا مع والدته، ولكنه كان يقضى الصيف كله مع أبيه فى شقتهما التى تعلونا بثلاثة طوابق.

بعد وفاة أبيه، انقطعت زيارته عن مصر، ولكن أمه ماتت منذ عام، فترك كندا وقرر أن يستقر فى مصر بشقة والده، وأن يفتح مشروع صالة رياضية بالمبلغ الذى ورثه عن والديه.

بمجرد أن استقر، وقع فى غرام مريم وتواعدا لمدة شهرين، ثم خطبها لسته أشهر أعاد خلالها تأيىث شقته، ثم تزوجا الشهر الماضى، وقد قضياه كله فى الانتقال بين شواطئ الغردقة، طابا، نوبع، الساحل الشمالى وأخيراً سيوة.

شعرت بأن مايكل تضايق من جلوس يىجو بجواره، فصديقى شخص منغلق لا يحب الاختلاط بالغرباء، وعلى الرغم من أن يىجو اعتاد ارتىاد حمام السباحة معنا بالنادى منذ أن كنا بالمرحلة الإعدادية، فإن مايكل لم يألف صحبته بعد.

أشار يجو إلى النادل وأعطاه طلبه.

كانت تعليماته دقيقة؛ يطلب المعكرونة بتسوية معينة، والفراخ بيهارات خاصة، حتى حين طلب كوين من المياه الغازية، طلب عددًا معينًا من مكعبات الثلج في كل كوب، وأن تكون فيه شريحة من الليمون الطازج، وشدد على أن تكون بداخله وليست معلقة على طرفه.

رحل النادل، فسألتهما:

- كيف كانت سيوة؟

أجابني يجو:

- مالحة! الهواء رائحته يود، والماء ينزل من الصنبور شديد الملوحة. أصبح عضوي مثل الخيار المخلل يا رجل!

فرت مني ضحكة بلهاء، بينما توقف مايكل عن المضغ دون أن يرفع عينيه عن صحنه وبدأت عليه علامات القرف.

زجرت مريم زوجها، فضحك ثم قال:

- ما خطبك يا مريم؟ الشباب لا ينجلون من بعضهم مثل الفتيات.

- ولكنهما صغيران على تلك النكات الجريئة.

- صغيران! في كندا، الفتيان في عمر عيسى ومايكل يعرفون كل شيء عن الجنس.

- بهيج! نحن في مكان عام يا حبيبي.

- ماذا قلت لك؟ لا تناديني بهذا الاسم الذي يثير الشبهات.

ضحك ضحكته الرنانة المميزة، ثم أضاف:

- نحن في مكان عام في بلد ديمقراطي يا مريومة، من يزججه حديثي له مطلق حرية الرحيل عن المطعم. دعينا من هذا الكلام التافه... أخبرني يا عيسى، كيف كانت تجربتك مع ماجد هذا؟

- جيدة على ما أظن... كان رجلاً لطيفاً.

- ألا يزججك الجلوس مع رجل غريب يملي عليك كيف تتصرف وما يجب أن تشعر به؟

اعترضت مريم:

- عيسى يمر بظرف يحتاج فيه إلى مختص يعاونه على التغلب على حزنه.

- لن يخرجه من حزنه سوى المرح. هيا يا عيسى، ما رأيك في أن نذهب في رحلة رجالية، أنا وأنت ومايكل.

اندفع مايكل قائلاً:

- لا! أمي لن ترضى.

- يا قلب أمك. حسناً، فلنسافر أنا وأنت يا عيسى.

علقت مريم:

- عن أي سفر نتحدث؟ هل قطعت شهر عسلنا لتسافر مع

عيسى؟

- نعم! الرجل في حاجة إلى مَنْ يدخل السرور إلى قلبه.
لا تفهم النساء أمور السعادة هذه.
أجبتة:

- لا أظن الوقت مواتياً للسفر، أود أن أكل علاجي مع
ماجد، أشعر بأني سأصل إلى نتيجة مرضية.

- وأنا أشعر بأنك تحمّل نفسك فوق طاقتها، ما ذنبك فيما
يحدث حولك من قبح؟ هذه الفتاة تنتحر وهذه تُدبّح،
والجميع يخوض في شرف الآخرين، ليس الأمر مستحدثاً
علينا. بحق الجحيم، منذ ألفي سنة جعل الله النبي عيسى ابن
مريم العذراء ينطق في المهد، لأن الجميع اعتقد أن والدته
زنت. احتاج قومه إلى معجزة إلهية حتى يغيروا رأيهم عن
أمه ويتأكدوا من أنه ليس ابن زنى. لماذا تظن أنت أنك
قادر على تغيير فكر هذا المجتمع العطن؟

انزع مايكل من كلام يجو إلى درجة أنه توقف عن
الأكل تماماً، ثم وضع على الطاولة ثمن طعامه وهو يقول:

- حمداً لله على عودتك من السفر يا مريم. أعتذر إليكم،
يجب أن أنجز بعض المشاوير مع أمي.

ارتبكت مريم كعادتها، وقالت لمايكل وهي تحك
حاجبها بتوتر:

- مايكل، هل انزعجت منا؟ أكل طعامك، سنتوقف عن
الحديث.

- لست منزعجاً، أنا فقط... لا بأس، سأراكم في المساء.

خرج من المطعم على عجلة من أمره. إنها طريقته المعتادة في الانسحاب من أي حديث لا يعجبه.

راقبه ينجو حتى خرج، ثم علق بابتسامة ساخرة:

- لصديقك حياء العذارى.

- عفويتك صادمة بالنسبة إليه يا ينجو.

- إنها صدمة يحتاج إليها من في سنك. لا ينجو بالصحاري سوى الصبار. إذا بقيت تقبل معاملة الناس لك كأنك نبتة منزلية واهنة، ستصبح كالزهور.

سأله مريم:

- وما خطب الزهور؟ الجميع يستحسن رؤيتها وأريجها.

- الزهور تقطف حتى تستمتعوا بها لسويغات ثم تذبل وتفنئ في سبيل ذلك.

وجه باقي حديثه إليّ:

- أنت في مرحلة انتقالية من المراهقة إلى الرجولة يا عيسى. عليك أن تفهم أن الاكتاب والانغماس في الحزن والشعور بالعجز وتوريط نفسك في مشكلات غيرك وتعاستهم وكأنك السبب في مصائب الكون، لن يفيدك. أنت في السابعة عشرة من عمرك، لا يجوز أن تمضي شبابك في البكاء في عيادات الأطباء. عليك أن تنطلق، ترحل، تتسكع على الشواطئ، ترقص مع الفتيات، تأكل المعكرونة مع شابة مثيرة وليس مع مايكل النكدي!

كنت سأدافع عن صديقي، ولكن النادل اخترق

حديثنا ووضع الطلب على الطاولة.

تأمل يجو تفاصيل الطعام، ثم هز رأسه برضا وابتسم للنادل.

نغز اللحم بالشوكة وقطعه بالسكين ليتأمل تسويته وهو يقول:

- من الآن فصاعدًا سأجعل من تعليمك لأصول السعادة مهمتي الوحيدة.

غمزني فابتسمت له، يجو هو أسعد رجل رأيته على وجه الأرض، يجعل من أي موقف نكتة ومن أي وضع كتيب حفلة مبهجة.

أكلت طعامي ثم نظرت إلى مريم، كانت ملاحظتها تشي بأنها ليست راضية عن أي مما قاله زوجها.

المرحلة الثالثة

المساومة

٥

صابرين

(قبل الجريمة بتسعة وعشرين يوماً)

الأم النشيطة تعلم بناتها الكسل!

أخبرت بتول أنني سأكون بحاجة إلى مساعدتها في المطبخ، وطلبت منها ألا تخرج كعادتها لتتسكع في المقاهي، بحجة أنها لا تقوى على العمل في البيت بهدوء.

أي هدوء هذا الذي تحتاج إليه، تترجم روايات من اللغة الفرنسية إلى العربية، لا تعمل في الذرة حتى تعترض على أجواء البيت!

ضربت بكلامي عرض الحائط، وأخذت حاسوبها وخرجت من البيت منذ الصباح.

الله لا يذلي لها، وليرزقها فتاة عنيدة ومزعجة ومهملة مثلها حتى تعرف مرارة ما تديقني إياه.

زفرت ودخلت إلى المطبخ، وشغلت الراديو لأبدأ العمل.

انسابت منه أغنية «أنا بعشق البحر» بصوت محمد منير، فأصابتني قشعريرة وارتجفت يداي.

غيرت القناة سريعاً، وشغلت نفسي بغسل الأرز.

بالأمس، كلمتني مريم لتخبرني أنها ستصل اليوم وزوجها إلى القاهرة، لأن بهيج عرف أن عيسى ذهب إلى طيب نفسي، فوجد أنه من الضروري أن يكون بجواره ويحاول التفرّج عنه.

ونعم الزوج يا مريم!

لمريم مكانة خاصة عندي. هذا لا يعني أنني أفرق بين أولادي الثلاثة، ولكن لطلما كانت مريومة مطيعة وتفهمني دون حتى أن أتكلم، ولا تجيب سوى بحاضر يا أمي، نعم يا أمي.

زادت مكانة مريم عندي بعد أن تزوجت وعوضتني عن استحالة فرحتي بتول التي اختارت حياة العزوبية.

لم تتزوج مريم أي شاب، بل بهيج سليمان دامس، أوسم وألطف شاب قابلته في حياتي.

أتخيل شكل أحفادي من الآن، سيرثون شعر مريم الفاتح وحمرة وجنتيها، وسيرثون عيني بهيج الزرقاوين وطول قامته وبنيته الرياضية إن كانوا صبية، أما لو كانوا بنات فسيرثن نحافة خصرها وكثافة أهدابها.

بمجرد التفكير في الأمر وتخيل وقع كلمة «جدتي» في أذني، تغمرني السعادة وأشعر بأن صبري لم يذهب سدى.

بما أن مريم وبهيج بإذن الله سيحققان أسمى أحلامي، أفلا تستحق زيارتهما لي مباشرة بعد عودتهما من شهر

العسل أن أعد لهما غداءً عظيمًا؟

حمام محشي بالأرز والفريك، وبطتان، ومختلف أنواع المحاشي، وملوخية، وأرز معمر، وباذنجان مخلل.

إنه أول غداء يحضره بهيج في بيتنا بصفته زوج ابنتي، يجب أن أشرف مريم أمامه، كما أن المسكين يتيم الأب والأم وقد جفت معدته من طعام الشارع والوجبات السريعة. ألا يستحق أكالات منزلية شهية من يدي حماته صابرين؟

أليست هذه أبسط مبادئ كرم الضيافة؟

لماذا إذن تصيح حماتي نصره وتنتقدي بفضاظة؟

غسلت وجهي بعدما سال عرقي من حرارة الفرن، ثم نشفته بالفوطة، بينما وقفت حماتي عند عتبة المطبخ تنظر إلى الطعام باستنكار وتنهري بصوتها العريض الذي يحته السجائر.

- عاشت مدينة السويس كلها على ١٤٠٠ شوال من الدقيق. هذه الكمية أطعمت ٢٠ ألف شخص لمدة ١٠١ يوم تحت حصار مشدد، وأنت تهدين كيلوات من اللحوم والخضر والأرز من أجل ستة أفراد؟ بيت المهمل يخرب قبل بيت الكافر يا صابرين! لن تدروا قيمة النعمة حتى تذوقوا فقدانها.

مارست موهبتي الوحيدة؛ الصبر.

اعتذرت إليها دون جدال، ووعدها أنني لن أكرر هذا

التصرف الأرعن. نعتني بـ«الكاذبة»، ثم خرجت من المطبخ لتكلم تدخينها.

أكره رائحة الدخان، وتلك العادة المقيتة التي نقلتها نصره إلى بتول التي لم تعرف السجائر إلا حين انتقلت حماتي للعيش معنا منذ سبعة عشر عاماً عقاباً لي من زوجي.

ألعن اليوم الذي اعترضت فيه على زواجه عليّ للمرة الخامسة.

هذا العدد الذي أعرفه، لم أعد أحسب عدد زوجاته منذ عام ٢٠٠٥.

حتى لا أكون كاذبة، أنا لم أعترض بالمعنى الحرفي للكلمة، بل كل ما في الأمر أنه اتصل من دبي في أثناء حملي في عيسى، وأخبرني أنه سيتزوج شابة أوكرائية وسيكسب ثواب إدخالها إلى الإسلام.

قلت له يا منتصر، أليس الأولى أن تكسب ثواب المكوث معي في أثناء الأيام الأخيرة من حملي عوضاً عن تركي بمفردي في هذه الأيام العصيبة؟

كانت مشادة كلامية بسيطة انتهت بأنه سيرسل أمه من السويس لتسكن معي حتى أتم ولادتي، لأن منتصر لن يقدر على الحصول على إجازة.

آل الأمر إلى بقائها معي سبعة عشر عاماً، ويبدو أنها لن ترحل عن بيتي حتى يفرقنا الموت.

ربما لهذا أصبح لعيسى ميول اكتئابية.

سمعت هذه المعلومة من طبيب نفسي ظهر في برنامج
مدام مفيدة شيحة، قال إن الحزن في أثناء الحمل يؤثر على
كيمياء مخ الطفل ويجعله اكتائياً.

هذا يفسر لماذا كان عيسى كثير النحيب، تراه عابساً
في كل صور طفولته، وعيناه العسلتان مصطبغتان بحمرة
البكاء.

لكنه كان نشيطاً، رياضياً وطويلاً مثل أبي رحمة الله
عليه، طوله ١٨٥ سم.

والله لو حلق شعره ولحيته الشعثاء مثل شوشة الذرة
هذه، لأصبح أوسم فتيان الحي ولوقعت الفتيات في
غرامه، ولكنه عنيد مثل بتول ولا يقبل مني تعليقاً واحداً
على مظهره.

لن أضايقه على أي حال، فلقد أصابته العين حتى مرض
بالاكتئاب.

كم مرة حذرته من نشر إنجازاته على الفيس زفت هذا!
يجبني لستُ مميزاً إلى درجة أن يحسدني الناس يا ماما.
لستُ مميزاً؟!!

الفتي الله أكبر عليه، يقرأ في العام الواحد خمسين كتاباً،
ويتفوق على كل أقرانه في الدراسة.

ما شاء الله، ابني وسيم، رياضي، مفتول العضلات،
أخذ المركز الأول في بطولة السباحة، وفي مسابقة الكتابة
الإبداعية.

يتفوق في الرياضة، والأدب، والعلوم. لا يدخن سيجارة ولا يعرف المخدرات والحشيش وترهات هذا الجيل السافل.

يصلي الفرض في وقته ويفهم دينه، ويفيض قلبه بالإنسانية ثم يقول لي يا ماما لماذا سيحسدني الناس؟
يا لك من متواضع يا قلب أمك، لا تفهم الغل الذي يملأ قلوب الفشلة الحاقدين!

ها قد أصابته نكبة وأدت عزيمته وغطته بنكد متواصل وساعات لا تنتهي من البكاء.

حبيبي بعدما كان يأكل فرخة كاملة بمفرده، صار لا يذوق الزاد، فما العمل يا ربي؟

حثونا في تربية البنات على أن نعلمهن العفة وحصون الذات، وفي تربية الشباب على أن نعلمهم تجنب المخدرات والكحول، ولكنهم لم يعلمونا كيف نقيم الاكتاب!
أي زمن هذا الذي يضطر فيه فتى لم يحصل حتى على رخصة قيادة بعد، إلى أن يتنقل بين الأطباء النفسيين حتى يعلموه كيف يكون سعيداً؟!

يا له من جيل تعيس، لن يقول أبداً ليت الشباب يعود يوماً، فأيام شبابهم هباب في هباب.

أخذت أدعو لعيسى ابني بحق شقائي في تربيته ووقوفه في المطبخ لأطهو لأسرتي في هذا الحر اللعين، حتى سمعت باب الشقة يُفتح يتبعه نباح كلب.

كلب داخل بيتي؟!!

هرولت إلى الصلاة فوجدت وكستي البكرية توصلد باب الشقة بالمفتاح وتحمل على ذراعها كلباً أبيض صغيراً ينبح بصوت ضعيف.

شهقت وضربت صدري ثم صحت فيها:

- ضربت بكلامي عرض الحائط يا بتول!

- يا ربي! قلت لك هذا الكلب سيساعد عيسى على تحسين مزاجه، كما أننا سننقذ روحاً من التشرذم يا ماما.

- أي تشرذم يا ابنة المتشردين أنت! أتريدين طرد الملائكة من بيتنا؟

- وأي ملاك يتحمل العيش في بيت المخايل هذا.

- أستغفر الله العظيم. ورحمة أبي، لن يبقى هذا الكلب في

بيتي.

- أنرميه في الشارع دون مأوى؟!!

- أعيديه من حيث اشتريته... كم دفعت فيه؟

- إنه كلب إنقاذ.

- مثل كلاب المكفوفين؟

- بل أنا أنقذته من صاحبه. كان كلب عاهرة سجلت

معه فيديوهات إباحية. وصلت عدة فيديوهات إلى إحدى

جمعيات إنقاذ الحيوان وأبلغوا عنها شرطة الآداب، فقبضوا

عليها وصار الكلب دون مأوى.

- أحضرت لنا كلباً يعمل في الدعارة!

المستفزة ضحكت.

أعلم علم اليقين أن نهايتي ستكون على يد ابنتي البكرية التي لا تعرف حياء ولا نجلاً.

تنطق أمامي بكلمات لم أكن أعرف معناها حتى تزوجت، ولو لم تمت أمي وأنا في العاشرة من عمري، لكان تندي جبيني لمجرد التفكير في مفردات مثل «المواقع الإباحية» و«الدعارة» أمامها.

البجحة دنت مني وقربت الكلب صوبي وهي تقول:

- فقط انظري، أليس ألطف كائن على الإطلاق؟

في الواقع، كان كلباً هادئاً وديعاً، أبيض اللون، غزير الشعر، عيناه مستديرتان ويبدو عليه الشقاء والحزن.

كان لطيفاً فعلاً، ولكن تفوح منه أكثر رائحة أمقتها؛ رائحة جوز الهند.

زادت ضربات قلبي وشعرت بضيق شديد وألم في جانبي الأيسر. اللعينة ستجلطني.

- بتول! لن أربي هذا الكلب.

- اتفقنا، سأربيه أنا وعيسى.

كانت ستكمل طريقها إلى غرفتها، ولكن لفت انتباهي بقع حمراء داكنة على إسوارة قيصها وطرف حجابها.

استوقفتها وأنا أسأها:

- ما هذا؟

تفقدت موضع البقع ثم أجابتي:

- إنه دم الرجل الذي ضربته.

يا صبر أيوب ويا حكمة الخضر!

لطمت وجنتي وصرخت فيها:

- ضربت من يا بنت منتصر؟

- خنزيراً صفع مؤخرة طفلة لا يتخطى عمرها عشر

سنوات. صحت فيه وسببته، ولكنه أنكر فعلته، وقال بكل

بجاجة ولم أتحرش بتلك الفتاة الهزيلة السوداء؟ زوجتي

شقراء وعيناها خضراوان. كان يجب أن أفعل شيئاً حتى

يفكر في المستقبل مائة مرة قبل أن يلمس طفلة صغيرة،

فلكمته لكمتين ولكن اللعين بصق دمه في وجهي، وأنا

كالبلهاء مسحت الدم بكُمي وطرف حجابي. لا تقلقي،

سأفرك البقع بالليمون والملح.

- لا! لا! هذا يفوق احتمالي واستيعابي. يا ماما نصرّة!

اسمعي ما الذي فعلته حفيدتك.

أنت نصرّة بخطواتها الثقيلة، فقصصت عليها ما صار

فوجدتها تقول لبتول:

- أحسنت يا بنيتي، فيك مروءة جدك.

صحت فيهما:

- مروءة! المروءة للرجال، يا عالم! من في سنّها يأخذن

أطفالهنّ للحضانة، لا يضربن الرجال في الشوارع وينتشلن

الكلاب من بيوت الدعارة!

- أمن المفترض أن أرى رجلاً يتحرش بطفلة لا حول لها ولا قوة وأقف أصفق له؟

- فلتنادي على العسكري.

ضحكتُ باستهزاء ثم قالت:

- إلى متى ستظلين تعيشين في حالة الإنكار تلك؟ العالم لا يدور حول جدران شقتك الأربعة فحسب. إن لم نتصدي لمن يؤذي غيرك فسيطلك أذاه. أظنك أعلم الناس بهذا.

- يا حبيبتى، أنا أخاف عليك. ماذا لو كان يحمل مطواة وتهجم عليك أو فاقك قوة؟

- لقد تدربت بما يكفي حتى صرت أحترف الدفاع عن نفسي ضد هؤلاء الخنازير.

- ولم المخاطرة من البداية يا ابنتي؟

- لأنني لست خاضعة لبطش الرجال مثلك يا أمي.

أخذت الكلب وصفقت باب غرفتها بعنف وظلت تصيح وتسب بغضب عارم وتركل أثاث الحجرة.

هكذا كانت بتول، قبلة تنتظر من يلبسها حتى تنفجر وتدمر كل ما في طريقها.

بتول

(ليلة الجريمة)

ستر رجال الإسعاف بدن العائد من الموت وحملوه
على المحفة، وخرجوا به من الصالة في طريقهم إلى عربة
الإسعاف.

خنزير!

دعوت الله أن يموت قبل أن يصل إلى المشفى، ثم
تذكرت أن موته سيعني بالتبعية إعدام أحدنا.

على الأقل، سننجو الليلة من جبل المشنقة.

انتشر رجال المعمل الجنائي يفحصون كل شبر من شقة
زوجية مريم وبهيج، خاصة غرفة الاستوديو.

وصل معهم ضابط شاب، كان يبدو أكثر حزمًا من
صديقه الطويل العاطفي الذي كان يتعامل معنا وكأننا في
عزاء وليس موقع جريمة قتل.

الآن، غاب عني اسم الضابطين.

إنه التوتر الذي يجوب في رأسي مثل لعبة البانكان،
ويلتهم أحدث المعلومات التي ولجت إلى مخي دون حفظ،
ولكنني أذكر أن الضابط الطويل الذي كان معنا منذ
البداية له اسم قائد عربي، وصديقه القصير الذي وفد إلى
شقتنا حديثاً كان اسمه على اسم نبي.

اللعة، من يبالي بالأسماء الآن!

فحص الضابط القصير ساعة الحائط الساقطة أرضاً بجوار الحائط المبطن بنظره دون أن يلمسها.

تهشم إطارها الزجاجي بسبب الطلقة التي اخترقتها فتعطلت عقاربها وهي تشير إلى الساعة الثانية والنصف فجراً، أي قبل عودتنا من القسم بنصف ساعة.

قد يجد الضابط في ذلك دليلاً يؤكد أن الجريمة تمت في غيابي أنا وجدتي وعيسى، أو قد يعتبره تمويهاً مقصوداً منا.

تفحص موضع الرصاصة التي اخترقت الساعة ثم استقرت في الحائط المبطن، وحك ذقنه المختوم بطابع حسن بارز.

أدرك مثلنا أن المسدس انطلقت منه رصاصتان، واحدة فاشلة والأخرى استقرت في رأس المجني عليه، لعنه الله.

نظر وراءه ثم مد ذراعه وأخذ يسير إلى الخلف دون أن يرفع عينيه عن موضع الرصاصة الفاشلة.

شاهدت ما يكفي من وثائقيات الجريمة وسير القتل المتسلسلين حتى صرت خبيرة بالتحقيقات البوليسية، مما جعلني أفهم ما الذي يفعله هذا الضابط دون أن ينطق.

كان يتبع خطوات القاتل حتى وصل إلى نقطة تناسب مسار انطلاق الرصاصة وقوتها.

همس إلى زميله، فدوّن كلمتين في دفتره الصغير، ثم مال إلى الأرض ونظر إلى شيء ما.

دقت النظر مثله، كان ينظر إلى بقع دم وشيء يشبه طبقة من اللحم، فأشار إلى أحد رجال المعمل الجنائي لينتشلها ويضعها في كيس ورقي ليضمها إلى الأدلة البيولوجية.

لو كان هذا الضابط ذكياً بما يكفي سيصل إلى تخمين أن جدتي لا تملك إلا سلاحين، أطلع زميله على تراخيصهما: بندقية، وهي ما زالت في المنزل وعليها دماء أبي بعدما ضرب بكعبها على مؤخرة رأسه، ومسدس ماجنوم ٣٥٧، لم تجده جدتي بالبيت.

أي هاوٍ أبله سيجرح نفسه عند استخدام هذا المسدس للمرة الأولى إذا أمسكه كما تمسك المسدسات الأتوماتيكية الشائعة.

هذه الوضعية ستجعل إصبع السبابة تلمس الأسطوانة الخارجية للمسدس في أثناء دورانها لإطلاق الرصاصة، فتخرج منها شرارات وشظايا وغازات ستسلخ جلده وربما تقتطع جزءاً من لحمه.

كيف تعرفين هذه المعلومات الدقيقة عن المسدس يا بتول؟

الفضل يعود إلى نصره السبع، لقد علمتني جدتي كل شيء عن الأسلحة والقتال وحتى طرق التخلص من الجثث.

على الرغم من سعة معرفتي بعالم القتل، فإنني أعلم أن الضابط لن يشك في أحد غيري.

ليس لأنني تصرفت تصرفاً مثيراً للشك، في الواقع أنا لم أنطق بكلمة منذ أن رأيت الجثة، ولكنني الوحيدة التي لفت كفيها اليمنى بالشاش والضمادات الطبية.

قام الضابط القصير بحركة غريبة! أخرج من جيبه ليمونة، أخذ يضغط عليها بإبهامه ويمررها بين كفيه، ويقذفها إلى أعلى ثم يتلقفها في أثناء حديثه مع زميله، حتى التفت إليّ ورأى جرح يدي.

أعاد الليمونة إلى جيبه واقترب مني قائلاً:

- ما خطب يدك، يا آنسة بتول؟

- وما خطب الليمونة التي تضعها في جيبك؟ هل تستعملها في المواصلات العامة؟

ضحك وهو يلمس موضع الليمونة في جيبه، ثم قال:

- يبدو أنك من محبي فيلم «٦٧٨». إنها عادة اكتسبتها منذ الطفولة ولأسباب لن تستوعبها الآن. على أي حال، لم تعطيني إجابة بعد، ما سبب الجرح الذي بيدك؟
لم أجبه.

- حسناً يا بتول. أين المسدس الذي استعملته لقتله؟ لا داعي للخوف.

- لست خائفة، هذا الخنزير الضاري يستحق أن يقتل ألف مرة.

- أعرف، شقيقتي البكرية كادت تقتل سيدة حاولت تسميمي من قبل. أنتِ مارستِ دور الأخت الكبيرة

التي تنشد حماية أخويها. أفهم دوافعك... فلنحمد الله
أنه لم يمت، لن تواجهي الإعدام، وما فعله بكم سيخفف
عقوبتك ويكسبك تعاطف الجميع، إنها قضية رأي عام.

- لا أريد تعاطف أي شخص، أريد العدل فحسب.

- العدل بالقانون، لا بإطلاق الرصاص على رؤوس

الناس!

- ليست هي من أطلق الرصاص يا بني!

أتى الصوت من خلفي، فالتفت لأجد جدتي، تضم
سيجارتها بشفتيها وتبسط كفيها أمام الضابط وهي تقول:

- فلتقبض عليّ وتسجل عندك يا ولدي، أنا نصره السبع،

قت وأنا في كامل قواي العقلية بقتل هذا القدر انتقاماً
لأحفادي.

بتول

(قبل الجريمة بتسعة وعشرين يوماً)

هدأت ثورتي الانفعالية وتوقفت عن ركل أثاث غرفتي.
وقفت ألث وأدقق النظر في ضيفنا الجديد.

أحضرت الكلب بهدف الترويح عن أخي وتحسين حالته
النفسية، ولكن هذا الجريفون الأبيض يبدو كرجل يعاني
أزمة منتصف العمر أو صعوبة في تسديد ديونه.

مَن أخادع؟ أنا مَن أرهبه!

لم تمر بضع دقائق على دخوله إلى البيت حتى استفزتني
أمي ودخلت في نوبة غضب، ركلت على إثرها كرسي
مكتبي وشفقت درف الدولاب، وأسقطت مصباح
الطاولة فوق السرير.

بالطبع أصبته بالهلع، ولهذا اختبأ أسفل فراشي في صمت.
أخذت أناديه وأنا أجاهد لمنع نفسي من الضحك بسبب
اسمه البذيء.

اضطرت إلى أن أغريه بقطع من الطعام الذي اشتريته
من أجله بعدما طعمته وحممته وقصصت شعره عند
الطيب البيطري وعطرته بزيت جوز الهند.

استجاب لي وخرج من أسفل السرير وتناول طعامه،
بينما غيرت ملابسي ثم سمعت باب شقتنا يُفتح ثم زغاريد

أمي، فعلت أن بهيج ومريم وصلا.

سمعت خطوات عيسى في الطرقة، فناديته وألقيت ملاءة
السريـر فوق الكلب.

طرق الباب ليستأذن بالدخول على الرغم من أنني من
ناداه. هذا المهذب هو تربيتي.

- ادخل!

- مريم ويـجو بالخارج.

- بالطبع، هل يوجد ما يدعو أمك للزغردة غير مريومة
البارة؟! أغلق الباب واقرب.

نفذ أمري ثم وقف أمامي، فرفعت الملاءة عن الكلب
لأكشف له عن هديتي.

- ما رأيك في هذه المفاجأة؟

- هذا الكلب لي؟

- لا، لأمك.

- قلت إنني أريد أن أحصل على كلب جيرمن شيرد!

- وما خطب الجريفون؟

- طولي متران وأسير مع كلب يشبه كيس القطن!

- يا لك من فتى تافه ينقاد للمظاهر. هذا الكلب أنقذناه

من التشرد، هل ألقيه في الشارع لأنك تود دعم بائعي

الكلاب المتاجرين في مخلوقات الله وكأنها أدوات

كهربائية؟

- ممن أنقذته؟

- من مديحة سهرات.

- ماذا؟!!

- فتاة ليل كانت تستغل هذا المسكين في أعمال الدعارة.

- حسناً... دعيني أنحن كيف يعمل دماغك هذا. أنا

أعاني الاكتئاب، وأنتِ تريدين الترويج عني، فأخذتِ

كلباً يعاني صدمة نفسية بسبب العمل في بيت دعارة كي

يهون عليّ حالتي؟ انظري إلى نظراته البائسة وطريقة جلوسه

الحزينة يا بتول. إنه في حاجة إلى العلاج النفسي أكثر

مني.

- حسناً يا عيسى، اذهب لجعل تجار الكلاب أكثر ثراءً

وابتع لنفسك كلباً بآلاف الجنيهات، سأعتني بهذا المسكين

من دونك.

قبلت الكلب وناديته باسمه، فحلق عيسى إليّ وقال:

- أهذا اسمه؟!!

- أخبرتك أنه كان كلب مديحة سهرات، ماذا كانت

ستسميه؟ لويس الرابع عشر؟!!

- لا دخل لي بهذا الكلب، أبداً.

- حسناً، وأنا لن أتوسط لك عند أمك لتشتري كلباً،

ولن أدعمك في أي شيء، ولا حتى تنسيق الكليات.

- لخاطر هذا؟

- لمخاطر الرفق بالحيوان، يا حيوان! فلتربي كيف ستقنع أباك بدخول كلية الإعلام وليس الهندسة كما أمرك.

- لن أخبره، سأملأ استمارة الرغبات بمفردتي، سأضعه أمام الأمر الواقع بدونك.

- ومن سيتصدى لصفعاته لك؟

- ماما.

- كانت تصدت لنفسها، يا ابن أمك.

- أنتِ بغيضة! سأخبر جدتي.

- انتظري.

فتحت درج الكومود وأخرجت منه علبة سجائر، ثم جذبت عيسى من أذنه ووضعت العلبة في يده وأنا أقول:

- حتى لا تسرق من سجائري مجدداً.

- أنا لم... لم أسرق منك. لا أدخن... أنا رياضي.

- رياضي وكاذب ولص فاشل.

سمعنا الباب يُفتح، فتوتر عيسى وألقى علبة السجائر داخل سرواله القصير كالأحمق، فتدلت من ساق السروال وسقطت أرضاً.

ضحكت عليه حتى دخلت مريم وأغلقت الباب خلفها.

لمحت علبة السجائر وعيسى يلتقطها من على الأرض ليعيدها إلى جيبه، فصاحت بصوتها الحاد المزجج:

- عيسى؟ ما هذا؟ أصرت تدخن؟

صاح فيها عيسى:

- أخفضي صوتك! أمي بالخارج. إنها علبة بتول.

ألقي العلبة صوبي وكأنها تهمة فهمست إليه:

- جبان!

- بغیضة!

خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه، فنظرت مريم إليّ
وسألتني:

- أتشجعين أخانا الصغير على التدخين؟

- ليس صغيراً، أنتِ تكبرين عيسى بخمس سنوات
فحسب، فلا نتظاهري بأنكِ صرت في مقام أمه لمجرد أنكِ
تزوجت.

- يا إلهي، اشتقت إلى لسانك السليط.

عانقتني بشوق.

ربت على ظهرها سريعاً كي تتركني، ولكنها ظلت متشبثة
بي كدودة العلق حتى اضطرت إلى إزاحتها قائلة:

- كفى! لقد عدت من سيوة وليس من الحجاز.

تركتني وانشغلت بالكلب.

بمجرد أن اقتربت منه ألقي بنفسه على حجرها، وظل ينظر
إليها بهدوء.

- إنه يحبني، سبحان الله، كل الحيوانات تنجذب إليّ!

- بهيج أكبر دليل على ذلك.

لم تجد مزحتي مضحكة، بل أخذت تحديق إليّ حتى
لمعت عيناها بالدموع.

تبألي! هل سأبكيها؟

- ما خطبك يا عروسة؟ كنتُ أمارحك.

- أحتاج إليك يا بتول. لديّ مشكلة، بل مصيبة! كارثة!

- ماذا حدث؟ هل ضربك هذا الخنزير؟ أقسم برب
السموات لو كان لمس شعرة منك فلسوف...

- لم يلمس أي شيء.

- ماذا تقصدين؟

- لم يلمسني... بأي شكل. لم يحدث شيء.

- لا شيء على الإطلاق؟

هزت رأسها إيجاباً.

- لماذا لم تخبريني؟ لقد اتصلت بك صباحية زواجك

وقلت إن كل شيء على ما يرام.

- لأنني لم أفهم شيئاً من أسئلتك. كنت تقولين هل

أجبرك على شيء؟ هل كان رقيقاً؟ هل راعى احتياجاتك؟

شعرت بأنني في عيادة الدكتورة هبة قطب.

- حسناً، احكي لي بالتفصيل ماذا حدث.

- لا شيء. أعني انتهى الزفاف، ركبنا الطائرة. وصلنا إلى

الغردقة، صعدنا إلى الفندق، دخل الحمام ليستحم ويغير

ملا بسه ثم خرج. دخلت لأستحم فخرجت لأجده نائمًا!
- عله كان مرهقًا من السفر و...

- هذا ما قلته لنفسى. لم أعلق ولم أحاول إيقاظه، ولكن
في الصباح، استيقظت ولم أجده بغرفة الفندق. اتصلت به
فطلب منى أن أنضم إليه على الشاطئ، ثم لا شيء. أمضينا
الأيام كلها في التسكع على الشواطئ والألعاب المائية
والمطاعم ثم نعود إلى الغرفة. يستحم ثم ينام!

- هل حاولت أن تسبقه وتستحمي قبله؟

- نعم، فنام ليلتها دون أن يستحم.

- أتودين إقناعي بأن هذا الوضع استمر لشهر كامل؟

- نعم، شهر كامل لم يفعل فيه شيئًا سوى معانقتي، لم
يقبلني حتى يا بتول!

- حسنًا، لا تأخذي سؤالي على محمل اللوم، أود أن أفهم
فقط، هل قلت شيئًا أو...

- لا، كنت في غاية اللطف معه، حتى إنني لم ألمح إليه
بانزعاجي من أنه لم... لم...

- بالله عليك يا مريم، تكلمي كالجمار!

همست إليّ:

- لم أسأله لماذا لم يعاشرنى بعد. لم أشر إلى الموضوع بأي
شكل، حتى لا أجرحه ولكنى لا أفهم. هل هذا أمر
طبيعي؟ في كل الأفلام العروسان يتعاشران ليلة الزفاف
وطيلة شهر العسل.

- دعك من الأفلام، يجب أن نتعامل مع الأمر بنضج.
هذا زوجك ولا حاجة إلى النجل بينكما، خذي الخطوة
الأولى؛ ارتدي شيئاً مثيراً، هيئي الجو بطريقة رومانسية،
أقبي عليه وقبليه وساعديه على خلع ثيابه و...

- يا إلهي! ماذا تقولين يا بتول؟ سيظن أنني عاهرة
متمرسه.

- هل نحن بالروضة؟ عمرك اثنان وعشرون عاماً وهو في
منتصف ثلاثينياته. هل سنتظاهر بأننا أطفال نجهل الجنس
تماماً؟

- أخفضي صوتك... لا أريد أن يعرف بأي شكل أنني
أحدثك في هذا الأمر، أنا متوترة بما يكفي.

- لا داعي للتوتر، أنتِ فقط في حاجة إلى كسر حاجز
الرغبة بينكما.

- ماذا لو كان الأمر أكثر من ذلك؟ ماذا لو كان لديه
مرض ما؟

- لهذا أخبرتك أنه من الضروري عمل كل الفحوصات
الطبية اللازمة قبل الزواج، حتى لا تقابلك أي مفاجآت.
- هذا خبل! أكنتِ تريدين أن أقول لخطيبي أود التأكد
من أن أعضاءك التناسلية تعمل بكفاءة!؟

- ما العيب في ذلك؟

- لسنا في السويد يا بتول. أفكارك هذه تخرب البيوت.

- حسناً يا ذكية، فلتريني كيف ستعمرين بيتك الآن، إن

والدتك تفكر ليلاً ونهاراً في أسماء أحفادها.
- إياك أن تقولي لها شيئاً.

- بالطبع لن أفعل، أمك لا تؤمن على سره على أي حال،
تحدثي مع بهيج بوضوح واستعدي نفسياً، فمن الوارد أنه
قد يكون يعاني خلافاً عضوياً بالفعل. يجب أن تطمئنيه
وتقترحي عليه أن يستشير طبيباً، عسى أن يكون الأمر
نفسياً فحسب بسبب وفاة أمه.

- ولكنه لم يذكرها على الإطلاق.

- هذا لا يعني أنه لا يرثيها. المهم أن تصارحيه برقة
ولطف حتى لا يشعر بالإهانة، وأخبريه أنك زوجته الحبيبة
وأنه لا داعي للنجل، وأنت ستدعمينه في جميع الأحوال.
- أنتِ محقة.

تهددت وعادت لتربت على رأس الكلب، ثم قالت:

- ستكونين زوجة واعية وناضجة يا بتول.

- كلاً، لن أكون زوجة تحت أي ظرف.

- لماذا يا أختي؟

- لست حمقاء مثلك حتى أقضي ما بقي من عمري في
ظل رجل جاحد يعاملني وكأنني ملك من ممتلكاته.

- من ملاء رأسك بتلك الترهات؟ بالتأكيد هناك رجال
مؤذون ولكن أغلبهم رحماء. لديك يجو وأبي وعيسى على
سبيل المثال.

- عيسى لطيف لأنني من ربيته، أما بهيج فخطوبة ستة أشهر وزواج شهر ليسا كافيين لتحديد معدنه، وحتى الآن لا أفهم سبب تسرعكما في الزواج و...

- لن نتناقش في هذا الأمر للمرة المليون. دعك من يجو، ماذا عن أبي؟ أليس رجلاً كريماً ومحترماً؟

- أبوك، الله يسامحه.

عيسى

(قبل الجريمة بخمسة وعشرين يوماً)

كنت أسجل على هاتفي كل مرة انتصرت فيها على حوت
الاكتئاب الأسود، حتى أقرأ تلك الانتصارات قبل النوم،
عسى أن تمدني ببعض الثقة في ذاتي.

اليوم، استحمت وارتديت منامة نظيفة.

اليوم، فرشت أسناني وسرحت شعري وهدمت ذقني.

اليوم، أنهيت صلاتي دون بكاء.

اليوم، ذهبت مع ييجو إلى الصالة الرياضية لأرفع بعض
الأثقال، وأسترد وزني الذي فقدته خلال الشهر الماضي.

اليوم، شربت كوب شاي بالنعناع مع جدتي في البلكونة
على صوت عبد الحليم حافظ دون أن أتخيل نفسي أقفز
من الشرفة وألقى مصير فرح.

اليوم، أكلت شطائر الكبدة الحارة مع بتول في غرفتها،
وتقاسمنا سيجارة أمام فيلم وثائقي عن سفاح نساء إنجليزي
دون أن تطاردني صور نيرة أشرف وهي مذبوحة في
الشارع.

اليوم، نهضت إلى الحمام حتى أغسل وجهي بعدما بكيت
لخمس عشرة دقيقة متواصلة بدلاً من الاستسلام للنوم
والدموع تسيل على خدي وتبلل الوسادة.

كانت حراباً واهنة أغرسها في بدن الحوت الأسود
الغليظ وأنا لاهت الأنفاس، ولكنها على الأقل تشعرني
بأنني أجاهد، أحارب، لا أخضع كلياً لضراوة الاكتاب
المهلك.

لم يثن ماجد على انتصاراتي الصغيرة فحسب، بل وصفها
بالعظيمة والمبشرة، ثم كلفني هذه المرة أن أستيقظ كل
يوم في وقت الفجر لأسير لمدة ساعة كاملة في الشوارع.

لم يطلب مني التريض. فقط التنزه والسير على مهل دون
وضع سماعات بأذني حتى أسمع أصوات العصافير المختلفة،
ولكي أرى منظر الأشجار وشكل السماء في ساعة الشروق.
لم أكن واثقاً من مقدرتي على السير وسط الناس في
الشوارع بعد.

لسبب ما، كنت أشعر بأن جيني مكتوب عليه «احذر
التعامل مع هذا الكئيب البأس»، ولكنني صبرت نفسي
بأن في الخامسة صباحاً لن ألقى أي شخص.
لا أحد يستيقظ في هذه الساعة سوى محاربي الأرق
والاكتاب أمثالي!

نبذني النوم ولازمي التوتر وكأنها ليلة امتحان سيحدد
مصير حياتي حتى رن المنبه في تمام الرابعة فجراً ليعلن عن
فشلي في النوم.

تلكأت في الفراش لمدة خمس وأربعين دقيقة، حتى
قررت أن أتغلب على مخاوفي التي لا أجد لها منطقاً.



صليت الفجر ثم وضعت ثيابي الرياضية غير المكوية
وكأنها خرجت من فم كلب، ثم نزلت إلى الشارع.

احتضني سكون ساعة الشروق التي بسطت جناحها على
شوارع الزمالك.

كانت الطرق خالية من البشر وبدأت لي وكأنها في ذروة
جمالها ونضارتها.

لا ضجيج أبواق سيارات، ولا ضوضاء بشر. فقط
ترقرق أمواج النيل كرقائق الفضة وضي الشمس الذهبية
المنعكسة على صفحته وحفيف أوراق الشجر الخضراء
وأزهارها الندية.

آلني جسدي بعض الشيء، فأنا لم أبرح فراشي منذ شهر
ولم أحضر تمارين السباحة كما كنت معتاداً، ولم أترىض
بما يكفي. ولكن بطريقة ما، تسلل إلى فؤادي شعور هجري
منذ أسابيع، التحمس لضي الشمس.

في اليوم التالي، تمكنت من النوم لأربع ساعات ثم
استيقظت على صوت المنبه.

نزلت سريعاً للسير، وتلك المرة أخذت رواية جيب من
روايات جورج سيمون، وثوب السباحة حتى أعيد تنشيط
عضلاتي بعد الانتهاء من نزهتي الصباحية.

خرجت من البيت وأخذت أولى خطواتي فوق
الأسفلت. لمس جلدي دفء أشعة الشروق الرقيقة، ثم
أخذت نفساً عميقاً ملأ صدري بندى البكور.

شعرت بانتصار جبار على عتمة نفسي التي تخلت عني في
الفترة المنصرمة.

ترجلت حتى النادي بعد مسيرة ساعتين كاملتين،
واتجهت إلى حوض السباحة.

انتهيت من السباحة ثم أخرجت رواية سيمون الأقراب
إلى قلبي «ميجريه والسيدة العجوز».

كدت أضع سماعات الهاتف في أذني حتى تنبعث منها
أغاني الصباحية المفضلة، ولكن استوقفني صوت امرأة
تقول:

- سأنتظرك في الكلوب هاوس حتى نفطر معاً يا لارا.

- حسناً يا أمي.

التفت لأرى سيدة محجبة بمقتبل الأربعينيات ترسل
قبلة في الهواء إلى ابنتها التي لا شك أنها لم تتخطَّ الثامنة
عشرة من عمرها بعد.

خرجت الأم من البوابة مع دخول لارا إلى منطقة حمام
السباحة.

كانت سمراء، لها شعر بني غجري مثل شعر ميريام
فارس، وعيناها عسلتان، بهما شيء من الخضرة التي تبرز
أكثر تحت أشعة الشمس، وشفثاها ممتلئتان، بهما حمرة
طبيعية كحمرة التوت.

كنت أظن هذا النوع من الجمال يوصف بالروايات
الرومانسية الموجهة إلى اليافعين السذج فحسب، ولكن

حُسن لارا كان سهلاً ممتنعاً تماماً كما يقول أمير عيد في
أغنيته:

أجمل واحدة من غير مجهود

لابسة عادي وشعرها مربوط

كانت ملابسها بسيطة بالفعل دون أي بهرجة أو تكلف.
جينز فاتح، وقميص قطني أحمر مطبوع عليه شعار سلسلة
«هاري بوتر» وترتدي صندلاً جلدياً يكشف عن جمال
أصابع قدميها المطلية بالأبيض الفاقع، فوقه خلخال فضي
يثني على سمرة ساقها الملفوفتين.

وضعت حقيبتها على شارلونج يبعد عني ببضع خطوات ثم
أخرجت منها فوطتها.

كشفت عن عود رياضي مشوق كلاعبات الجباز،
تبرز مفاتنه أسفل ثوب حمام السباحة الأحمر الذي ترتديه
أسفل ثيابها الواسعة.

وضعت ثيابها على ظهر الشارلونج، وربطت شعرها حتى
تدسه أسفل غطاء الرأس المخصص للسباحة، ثم نظرت
نحوي فجأة.

بدو أنني أطلت النظر إليها حتى أزعتها.

اللعة! ستظن أنني متحرش.

تظاهرت بالانشغال بالقراءة وكأنني لم أنتبه لوجودها من
الأساس.

- المذرة!

لا أظن أنها تحادث شخصاً آخر، فلا يوجد غيرنا في المسبح بهذه الساعة.

نظرت نحوها بحذر، فوجدتها تبسم لي بملامح ودود وتقول:

- أعتذر إليك، هل يمكنك أن تساعدني على غلق الشمسية حتى آخذ حمام شمس؟ أعاني كل يوم من الوصول إلى رأسها.

كانت تنطق حرف السين ثاءً مثل الممثلة درو باريمور.
ما أطفها!

انتفضت من على الشازلونج بشكل مبالغ فيه، متقمصاً دور أحمد السقا الشهم وأنا أقول:

- أجل، طبعاً، بالتأكيد. سأساعدك بالطبع.

أدركت أنني أتلعثم كالأنخرف فأثرت الصمت، وجعلت من ربط الشمسية مهمة قومية.

بمجرد أن وقفت بجوارها، تبينت أنها أقصر مما تخيلت، فرأسها بالكاد يصل عند تحت إبطي.

فرق الطول بيننا أثار ضحكي ولكني تماسكت وصببت جلّ انتباهي على مهمتي حتى أتمت غلق الشمسية كالمحترفين.

ابتسمت لي قائلة:

- شكراً.

يدو أنني أجبته في عقلي دون أن أنطق بكلمة مسموعة،
بل بقيت واقفاً في طريقها كالأبله أبتسم نصف ابتسامة.
لا أدري لماذا لم تخف مني وتأخذ أشياءها وتتجه إلى
شازلونج بعيد عني!

لسببٍ ما، كانت تبسم لي، ثم قالت بالنبرة الودود نفسها
وهي تنظر إلى مقعدي:

- هذه روايتي المفضلة. ظننت أنني الوحيدة التي تقرأ
لجورج سيمنون.

انتبهت لوجود الرواية على الشازلونج، فابتسمت ابتسامة
أوسع وأكثر بلاهة دون أي تعليق.

هزت لارا رأسها بامتنان ثم تركتني وقفزت إلى المسبح.
اليوم أحرزت انتصاراً مهيئاً.
ابتسمت لشخص لا أعرفه.

هكذا أدركت أنه صار لديّ دافع أكبر للهجيء إلى حمام
السباحة كل يوم، في الساعة نفسها.

واظبت على المشي والسباحة والحملقة إلى لارا.
كل صباح، أصل قبلها. تبسم لي وتقول بالفرنسية بنبرة
مشرقة:

- بونجورا!

- بونجورا!

أسأل نفسي: كيف عرفت أنني تخرجت في مدرسة
فرنسية وأجيد هذه اللغة بطلاقة؟

أخذت أرسم سيناريوهات خيالية في رأسي. لا شك
أنها معجبة بي فبحثت عني على الفيسبوك حتى رأت اسم
مدرستي في بياناتي.

انهار هذا المسلسل التركي حين أدركت أنها لا تعرف
اسمي، كي تجدني على مواقع التواصل الاجتماعي.

خرجت من أوهامي نهائياً وأدركت أنني حمار كبير، هي
تعرف أنني أجيد الفرنسية لأنني أقرأ رواية فرنسية بلغتها
الأم!

لخمسة أيام، لم يتخطَّ تعاملي مع لارا حيز التحية الصباحية
والابتسامات الصامتة وطلبها لأغلق لها الشمسية.

مريم تقول إن طلب الخدمات هو لغة من لغات الحب
عند الفتيات، بينما تدحض بتول هذه النظرية وترى أنها
لغة المنتطعات، فالفتاة الحق تجيد الاعتماد على نفسها ولا
تنتظر المساعدة من الجنس الآخر.

حاولت ألا أرهق نفسي بالتفكير في تفسيرات وفك
شفرة سلوك البنات، لا أو من بأن هناك قاعدة ثابتة
لفهمهن، كل منهن لها ككولوجها الخاص.

اكتفيت بمراقبة لارا وهي تسبح بنشاط وحماس مفرط.
تذرع حمام السباحة الأولمبي ذهاباً وإياباً، طولاً وعرضاً،
دون أن تشعر بالإرهاق.

تخرج من الماء، فتذهب إلى الكافيتريا تطلب مخفوق الحليب المثلج بالفانيليا، تجلس على الشازلونج لتنيه ثم تذهب إلى الكافيتريا مجدداً لشراء رقائق البطاطس بالخل، ثم تنهض مرة أخيرة لشراء اللبان بنكهة البطيخ.

لا تحضر طلباتها كلها دفعة واحدة، بل تظل تتحرك وتسير حول المسبح دون كسل أو كلل.

أحسدها على نشاطها!

في اليوم السادس من روتيني الصباحي الجديد، انضم مايكل إلي عند حمام السباحة.

رفض كعادته أن يسبح معي. لسبب ما، أصيب برهاب من حمامات السباحة ترتب عليه أن ترك تمارين السباحة معي على الرغم من أن مستواه كان شديد التقدم.

آثر مايكل الجلوس على الشازلونج والاستماع إلى قائمة أغانيه التي تكاد تطابق قائمتي، وتركني أسبح بمفردي قبل أن تصل لارا وتطلب مني غلق الشمسية.

قفزت في الماء وسبحت طويلاً على أمل أن أستعيد لياقتي وكفاءة رثتي.

أنهيت المجموعة الأولى من تمارين السباحة وكدت أشعر في المجموعة الثانية، ولكنني لمحت لارا جالسة بجوار مايكل على طرف الشازلونج الخاص بي وهما يتضحكان في انسجام تام.

كانت ضحكتها مميزة، مزيج فريد من اللطافة الطفولية

والإثارة الأنثوية.

خرجت من الماء وحاولت التظاهر باللامبالاة، فسرت على مهل حتى لمحني مايكل وأشار إليّ وهو يقول للارا:

- ها هو ذا، عيسى، بطل سباحة نادينا.

التفتت لارا إليّ وقالت بصوتها المبتهج دائماً:

- إذن هذا هو اسمك، عيسى؟

سألها مايكل قبل أن أجيبها:

- أتعرفان بعضكما؟

علقت لارا ضاحكة:

- أعرفه باسم الفتى الصامت الذي يقرأ لسيمنون، وهو على الأغلب يعرفني باسم فتاة البونجور.

- بل أعرف أن اسمك لارا.

لا أدري لماذا بدت جملي خرقاء، حاولت تغيير مسار الكلام على الفور وأنا أسألهما:

- هل أنتما صديقان؟

أجابني مايكل:

- لارا جارتنا منذ القدم، ولكن أسرتها سافرت إلى الكويت ثم عادت مع أمها منذ شهر كي تلتحق هنا بالجامعة. لقد قررت أن نتولى إعادة تعريفها على وطننا بعد عشر سنوات من الغياب.

التفت مايكل إلى لارا قائلاً:

- عيسى ليس بطلاً رياضياً فحسب، بل هو أكثر المثقفين
في فصلنا. سيساعدك على شراء كل الكتب والروايات
النادرة التي تبحثين عنها، كما أظن أنه سيحب اقتراحك.

التفتت لارا نحوي، بينما غمزني مايكل من خلفها
بابتسامة محرصة.

قالت لارا:

- كنت أقترح على مايكل الذهاب معي غداً إلى معرض
فناني عشرينيات القرن العشرين في قصر عائشة فهمي...
هل أنت مهتم بهذا النوع من معارض الفنون التشكيلية؟

أكره الفن التشكيلي بكل صورته!

- بالطبع، أنا مولع به.

- عظيم! ألقاك غداً، يا عيسى.

عيسى

(قبل الجريمة بتسعة عشر يوماً)

تركت الفراش فور أن فتحت عيني.
 كنت جائعاً فخرجت من الغرفة لأجد جدي صاحبة
 المزاج الرائق دائماً، تأكل شطائر الفول والطعمية بالشرفة.
 أكلت معها ثم شربنا الشاي بالنعناع ودخنت سيجارة،
 سمحت لي بأن آخذ منها نفساً واحداً ثم لعبنا الطاولة.
 غلبتني بالطبع.

استيقظت أمي بعدها بقليل تأكل شطيرة جبن وتلوك
 الجرجير كالسلاحف، ثم جلس ثلاثتنا في غرفة المعيشة
 وضوء الصباح الباكر المنعش يسقط على وجهي فيشعرنني
 بشيء من البهجة غير المعهودة.

فتحنا التلفزيون ورفعت جدي الصوت لأعلى ما يمكن
 حتى تشاهد فيلم «النهر الخالد» الذي رآته ما لا يقل عن
 مائة مرة. في كل مرة، تخبرني كم كان جدي شرف
 الدين يشبه عمر الشريف حد التطابق، وأني ورثت دقة
 ملاحى وجاذبيتي منه وليس من أبي ذي الأنف المفلطح
 والعينين الضيقتين.

خرجت بتول من غرفتها بملاح منتفخة من فرط النوم
 وبشعر أشعث وبعينين حمراوين، يتبعها كلبها وهي تصيح:

- هل نحن في نادي السينما؟ أخفضوا صوت التلفزيون
اللعين!

علقت جدتي:

- استيقظت الباشمترجمة لتعرف أهلنا! إنها العاشرة صباحاً.
في سنك، كنت أستيظ من الرابعة فجراً.

- ولم أستيظ في الرابعة فجراً؟ لأحلب الجاموسة أم
لأؤذن مكان الديك؟

- ما من جاموسة غيرك. هيا استيقظي، فأختك وزوجها
سيمران علينا خلال ساعة.

أخذت تتم وتضرب الأرض بكعبها، حتى صفقت
الباب خلفها ومعها الكلب.

خرجت بعدها بفترة وقد هذبت منظرها وأعدت لنفسها
قهوتها السادة التي تجعلها مثقفة رسمياً.

ارتشفت القهوة ثم سألتني:

- ما سر بهجة القروود التي على وجهك؟

أجابتها أمي:

- قولي ما شاء الله، ألا يكفي ما أصابه؟

علقت جدتي:

- على وجهه ابتسامة حلاوة البدايات.

سألها بتول:

- أي بدايات هذه؟

- حفيدي عنده موعد اليوم مع عائشة فهمي.

- جدتي!

- سمعتك بالأمس تتحدث مع مايكل. مَنْ عائشة فهمي
هذه يا عيسى؟ يبدو اسمها مألوفاً.

- عائشة فهمي هو اسم المكان الذي سأقابلها فيه، يا
جدتي. إنه قصر ومعرض فنون.

غمزتي بتول وقالت:

- يا ولد يا مثقف، اختيار ممتاز للمكان.

- لم اختره بل كان اختيارها.

سألني جدتي:

- إذن، ما اسم عروستك؟

- توقفي يا جدتي! ليست عروستي وهذا ليس موعداً
غرامياً...

قاطعتني بتول:

- لا تكن أبله، لا ينكر مشاعره سوى الطفل. إن كانت
تعجبك فلم المراوغة!

زغردت أمي وابتهلت ملامحها وهي تقول:

- أحمدك ربي. يبدو أن الأفراح لن تنقطع عن هذا
البيت!

علقت بتول:

- أفراح؟ هذا الأرعن لم يتم الثامنة عشرة من عمره بعد.
الدولة لا تأخذ بتصويته في الانتخابات وأنتِ تقولين أفراح
وزفاف وهذه الترهات!

- ترهات يا بنت منتصر! الله يسامحك، دعك منها يا
عيسى يا حبيبي. لقد أكلت الكتب عقلها. احكِ لي عن
فتاتك، ما اسمها؟ ما مهنة والديها؟ هل تجيد الطهي؟
التفت إلى بتول قائلاً:

- أرايتِ لم أنكر مشاعري أمامكم؟ أنتم تبالغون في كل
شيء وتشطحون بخيالكم وترفعون سقف توقعاتكم على أتفه
الأسباب، ثم تستعجبون خوازيق الزمن!

- يا بني أنا أمك ويفرحني فرحك. أنت آخر العنقود،
أنت آخر فرحتي ليس عندي ما هو أعز منك و...
رن جرس شقتنا وسمعنا صوت بهيج يطرق الباب
بطريقته المميزة وهو يقول بإيقاع مرح:

- يا ماما صابرين، يجو هنا!

انتفضت أمي بسعادة غامرة وهي تقول:

- يجو حبيبي!

هرولت بحماس عارم، إلى درجة أنها ارتطمت بمقبض
باب غرفة المعيشة، وأكلت طريقها دون مبالاة.

قلت لبتول:

- يرقص قلبها فرحاً كلها سمعت صوت يجو، ثم تقول لي
أنت أعز أبنائي يا عيسى!

- يا لك من محظوظ! رأيت من أمك ما يكفي من الحنان حتى تشعر بالغيرة حين تولى اهتمامها لغيرك، هذه قيمة ألا تأخذ من حنان أمك رشفة، لن تشعر بالغيرة من أي شخص.

نهضت فسألتها:

- إلى أين؟

- سأذهب إلى المقهى حتى أتم عملي، لدي حساسية من فرط طاقة وحماس يجو هذا.

علقت جدتي:

- ليس من أصول الضيافة أن تتركي ضيوفنا.

- ليسوا ضيوفًا. هذا بيت أختي ويجو زوجها، إذن هو من العائلة.

- ولكن يجب أن تبقي معهم حتى...

- جدتي، أتدرين لماذا اخترت أن أكون مترجمة مستقلة تعمل من البيت؟

- لأنك لا تملكين ثمن البنزين.

- نعم، وأيضًا حتى أحافظ على عزلي الفكرية دون أن أحتك بالعامية أمثالكم.

- والله المرحوم طه حسين ما كان في نصف عجرتك هذه. هيا اخرجي، مع السلامة.

كادت تخرج ثم التفت إلي وقالت:

- حاول أن تكون لطيفاً مع الفتاة التي ستقابلها اليوم، لا تُخزِر!

قابلتها مريم في طريقها للخروج من الغرفة، وهمت أن تعانقها كالعادة، ولكن بتول تملصت منها قائلة:
- عانقتك بالأمس. ها، هل...؟

- ليس بعدا!

زفرت بتول وهزت رأسها بخيبة أمل فسألتها:

- هل ماذا؟

صاحت بتول:

- وما شأنك أنت؟

تركنا بتول، بينما أقبلت مريم عليّ وقبلتني وعانقتني، وكذلك فعلت مع جدتي ثم سألتني:

- كيف حالك يا حبيبي؟ في وجهك بهور القمر.

أجابتها جدتي وهي تصب لنفسها المزيد من الشاي:

- سيخرج في موعد غرامي.

- جدتي!

ابتسمت مريم وأخذت تدغدغني قائلة:

- أتخجل مني؟ حبيبي نضج وصار يخرج في مواعيد

غرامية!

- توقفني!

- ماذا سترتدي؟

- قيصًا قطنيًا.

- ما لونه؟ يجب أن تختار ثيابك بعناية، فالرجل الأنيق
النظيف يأسر النساء. يمكنك أن تسألها ماذا ستلبس ثم
تختار لونا يتماشى مع ملابسها أو مع لون عينيها، ما لون
عينيها؟

دخلت أمي إلى الغرفة تضحك بمرح، ويجو يعانقها ويقبل
جبينها ويدللها بأسماء غريبة، ويحمل بيده عدة حقائب
ورقية وهو يقول:

- يا الله! أنتِ هدية من السماء يا ماما صابرين.

- بل أنت عوض الله يا بهيج. أشكر ربي كل يوم أنه
زوج مريم بالطف شاب على الإطلاق. تعال، ارتح على
الأريكة حتى آتيك بفطورك المفضل.

دفعني أمي إلى النهوض حتى تجلس يجو على الأريكة
كلها بمفرده.

ثم تقول لي إنني ابنها المفضل!

قال يجو وهو يمسك برسغي:

- لا تنهض يا أسد، أحضرت هذا من أجلك.

أعطاني الحقائب التي يحملها ففتحتها، وأمي تغدق عليه
بكلمات الثناء والشكر.

كانت الحقيبة مليئة بقمصان قطنية عليها شعار فرقة
كايروكي ووجوه مطربها، وكتب فرنسية نادرة لجورج

سيمنون لم أجدها في مصر قَطُّ، وحقبة ظهر مطبوع عليها
توقيعات مختلفة لكَتَّابِي المفضلين، وأقلام حبر أنيقة ودفاتر
تغليفها جلدي صلب باهظ الثمن.

كانت الهدايا كلها باهرة، وكأنها صُنِعت لي خصوصاً
وليست مجرد هدايا عشوائية لمراهق مكتئب.
- يجو، لقد كلفت نفسك كثيراً.

- لا تكلفة بيننا. ماما صابرين أخبرتني أنك تعاني صعوبة
في الكتابة، قلت ربما يحمسك قلم جديد ودقتر أنيق.
- نعم، ولكن هذا كثير.

- ليس كثيراً عليك يا أسد، المهم أن تستعيد إشراقتك
وتجهز نفسك، لأن لدينا مشواراً مهماً الشهر المقبل.
أخرج من جيبه تذكرتين من الفئة الأولى لحفل كلرويكي
وقال:

- هذا أنسب مكان لارتداء قمصانك الجديدة.

صحت بحماس، فقد نفدت تذاكر الحفل بعد الإعلان
عنه ببضع ساعات، ولم نتح لي فرصة أخذ قرار نهائي بأني
سأتحلى عن اكتتابي وأحضر الحفل.

عانقني يجو وربت على ظهري، بينما أخذت أمي تمتدحه
حتى رن جرسنا ثانية ونهضت لفتح الباب.

قالت مريم:

- يجو يقلق عليك كثيراً يا عيسى. يود إسعادك والترويح
عنك بأي شكل.

قال:

- بما أنك ترفض السهر معي ولا يعجبك ما يعجبني، قلت
أجرب أن أشاركك ما تحب، سأستخدم علاقتي بالوسط
الموسيقي وسأدبر لك لقاءً خاصًا مع أعضاء الفرقة التي
تحبها، ما رأيك؟

كطفل أبله، صرخت بحماس وعدم تصديق أنني قد
أجلس مع موسيقيي المفضلين وأحادثهم كما أحادث أي
شخص عادي.

عادت أمي إلى الغرفة وبصحبتها مايكل الذي كان يبدو
باهتًا بائسًا متقلب المزاج كعادته.

هرولت صوبه بحماس الأطفال نفسه وقلت:

- انظريا مايكل! بهيج سيدبر لنا لقاءً مع كايروكي،
وأحضر لنا تذكرتين لكار الزوار لحفلهم المقبل.
- حقًا؟

علق بهيج:

- في الواقع، التذكرتان لي ولعيسى! لم أكن أعرف أنك
أيضًا تحب الفرقة نفسها يا مايكل.

لماذا اندفعت واستنتجت دون مقدمات منطقية أن
التذكرة الثانية لمايكل؟

أخرق!

زادت ملاح مايكل بؤسًا، ثم قال بنبرة فاترة:

- لا يهم. لا أحب التجمعات البشرية على أي حال...
استعددت يا عيسى للذهاب إلى المعرض أم ماذا؟

سألني يجوز:

- أي معرض؟

أجابته مريم:

- عيسى سيذهب في موعد غرامي.

علق بهيج بابتسامة ساخرة:

- حقًا؟ لم أكن أعلم أنك معجب بإحداهن، يا أسد!

- لست معجبًا بأحد!

جذبت مايكل قائلاً:

- هيا، لا نود أن نتأخر.

اتجهنا إلى غرفتي، ولكن جدتي لحقت بنا بعد دقائق،
وقالت إنها لا تحمل تدليل أمي السخيف لهيج.

خلعت القميص وفردته على السرير، فقفز كلب بتول
السخيف فوق كومة ثيابي النظيفة وأخذ يتمرغ ويمطى
عليها ناثرًا شعره الأبيض.

صحت فيه لينزل ولكنه لم يستجب لي بأي شكل. يعرف
أنني لست الذكر الألفا بهذا البيت، فلا يطيع أحدًا غير
بتول وجدتي.

هذا الكلب لا يحترمني بأي شكل من الأشكال.

أناديه، فلا يرهق نفسه بالالتفات صوبي إلا إذا كنت
أكل شيئاً، وقتها يجلس على حجري أو يقف خلفي مستنداً
إلى كتفي كما البغاء، ثم ينتشل اللقمة من يدي.

في إحدى المرات دخل معي إلى الغرفة ونام بجواري
على السرير، ظننتها لحظة ترابط بيني وبينه، ولكن حين
استشعر مني أنني سأبكي أصدر صوتاً أقرب ما يكون إلى
الشخير، ثم خرج من الغرفة. لا ينقص سوى أن يقول لي
سد فك يا ابن النكديّة.

حتى حين جربت أن ألاعبه لعبة الالتقاط، ألقيت صوبه
كرته، فنظر إليّ باستحقار، ثم صعد بجواري على الأريكة،
وأخذ يقلب نظره بيني وبين الكرة حتى أنهض وأحضرها
إليه.

حين فعلت ذلك، ألقى الكرة مجدداً، ونظر إليّ النظرات
نفسها لأعيد الكرة حتى أصبح هو الذي يلاعبني لعبة
الالتقاط، لا العكس.

جعلت صوتي أكثر غلظة حتى يطيعني وينزل عن ثيابي،
ولكنه أصدر صوت الشخير مجدداً.

رمقته جدتي بحدة ونادته باسمه السخيف، ثم أمرته
بنبرتها المهيبة بأن ينزل.

لم يتمالك مايكل نفسه وضحك على بذاءة اسمه، بينما أطاع
كلبنا اللعين جدتي ونزل عن ثيابي على الفور ووقف عند
قدميها بمنتهى الطاعة والالتزام.

كانت الجدة نصره جالسة على طرف سريري بجوار مايكل لتساعدني على اختيار المظهر اللائق بخروجي اليوم مع لارا.

رشت الشاي من كوبها الزجاجي المفضل بعدما أجبرتني على تغيير قميصي للمرة الثالثة، لأن ألوانه مائعة لا تليق بالانطباع الذكوري الذي يجب أن أتركه عند لارا في لقاءنا الأول.

ارتديت قميصاً مختلفاً، فنظرت إليّ ثم علقت:

- ورحمة أبي، أملك قميص نوم لونه نفس درجة قميصك المخنث هذا.

- نحن في ٢٠٢٢، لم تعد هناك ألوان للشباب وأخرى للبنات يا جدتي.

- بل لم يعد هناك رجال من الأصل، يا عين جدتك. لماذا لا ترتدي البدلة التي حضرت بها فرح أختك؟
- لست ذاهباً لخطبتها، إنه معرض لوحات.

- أليس مثل معارض الأوبرا؟ الناس يلبسون البدل بالأوبرا.

أجابها مايكل:

- الأمر مختلف في قصر عائشة فهمي. ترتدي هناك ملابس عصرية، مثل جينز البوي فريند والقمصان القطنية السادة أو القمصان القماشية المشجرة والملونة.

- أيجب أن تكون ألوانها «حريمي»؟ الولد يربط شعره

ذيل حصان، ويرتدي قميصاً وردياً على سروال أبيض
قصير. والله لا ينقصه سوى ثدين!

أجبتها:

- بحقك يا جدي! لقد خطبك جدي مرتدياً بنطلون
شارلستون وقيصاً أزواره مفتوحة حتى سرتة، وكان شعره
كنيشاً وسوالفه تصل إلى صدره.

- احرص، يا مُتَنَطِّع! ماذا تعرف أنت عن أناقة جدك
شرف الدين، ولا سحر جدك شرف الدين؟ يا جيل معفن
لا يعرف سوى السراويل الساقطة عن مؤخراتهم والممزقة
عند ركبهم القدرة وأنخاذهم المشعرة.

ضحك مايكل حتى ألمه بطنه، فابتسمت رغماً عني، بينما
نظرت جدي إلى كلينا وصاحت:

- الجلوس معكم مضيعة للوقت، ساعد كوباً آخر من
الشاي. عكرتما مزاجي يا وغدان!

خرجت من الغرفة يتبعها الكلب، ثم توقف مايكل عن
الضحك وقال:

- البس ما يعجبك، لارا لن تفكر مثل جدتك.

- كنت سأرتدي أي قميص مكوي، ولكن مريم ظلت
تؤكد على أهمية العناية بتفاصيل ما سألبسه. اللعنة! الجلوس
مع النساء يسلبك عفوية التفكير وبساطته.

- ارتدِ القميص الأبيض البولو على جينز داكن فحسب.
لا تفرط التفكير في الأمر.

أخرجت القميص القطني لأتفحصه وأتأكد من أنه نظيف بينما سألته:

- واثق من أنها صدقت كذبة أنك لن تتمكن من النزول معنا؟

- نعم، أخبرتها أنني أشك في إصابتي بالكورونا، وسأذهب لعمل الفحوصات حتى أتأكد.

- لم تعترض على مرافقتي لها؟ لم ترفض أننا سنكون وحدنا؟

- كلاً، أعتقد أنها تبادلك المشاعر ذاتها يا عيسى.

- أي مشاعر؟ لا توجد مشاعر! أنا فقط... ماجد نصحني بتكوين صداقات جديدة.

- صداقات جديدة تجعلك تمضي ساعة ونصف الساعة تختار ثيابك؟

- هل العناية بالذات حكر على النساء؟

- لا تعطني محاضرة جديدة عن المساواة الجندرية. أردت أن أطمئنك، حاول فقط ألا تكون كتاباً مفتوحاً أمامها، لا داعي لمشاركتها أي أفكار سوداوية في أول لقاء بينكما، فلارا هي أسعد شخص رأيته في حياتي.

- سعيدة؟ هل هناك شخص ولد بعد عام ١٩٩٥ سعيد؟

- أسأل نفسي السؤال ذاته في كل مرة تأتي فيها مع أمها لزيارتنا ولكنها من عائلة مربية. أتدري؟ أمي أخبرتني أن أسرة لارا تجتمع يومياً، مرة في الصباح ومرة أخرى في

المساء.

- للإفطار والعشاء؟

- بل للعناق!

- أتمزح؟

- أحادثك بأمانة. أم لارا تقول إن هذا يساعد على توليد هرمون... هناك هرمون اسمه معقد لم أتمكن من حفظه، هذا الهرمون يأتي من العناق ويساعد على النمو السليم والسلامة النفسية.

- أهلها يعانقونها مرتين يومياً دون سبب؟! حين أراد أبي أن يعبر لي عن نخره بي بعدما فزت ببطولة السباحة صفعني على قفائي وضحك.

- هذا لأنه يجهل لغة الطعام. حشت لي أمي أعظم ديك رومي حين أخذت لقب أفضل حارس مرمى في فريق كرة اليد.

- لا يمكن للعناق أن يغلب حلاوة ديك أمك!

ضحك ثم أضاف:

- أتدري ما الأعجب من عناقهم؟ في نهاية أي مكالمة مع والديها تقول أحبك.

- مثل الأجانب؟

- نعم، إنها أسرة غريبة جداً يا عيسى. جميعهم يتسمون ويمدحون بعضهم بدون سبب.

- يا إلهي! هل تسرعت في النزول معها؟ أنا أتعالج من
الاكتئاب بحق الجحيم!

- قد تكون سعادتها المفرطة مُعدية. عسى أن تنقل إليك
فيروس البهجة، يا صديقي. فقط لا تخبرها الآن أنك
تذهب إلى ماجد ملاك، أعطها فرصة للتعلق بك قبل أن
تصدمها بحقيقة شخصيتك الكئيبة.

* * *

كنت أمر كثيراً أمام قصر عائشة فهمي، ولكن لم يكن
لدي ما يكفي من الفضول لاستكشافه من الداخل،
لأنني دائماً ما أجد حديقته الخارجية مليئة بالعشاق الذين
يمسكون أيادي بعضهم ببعض، فتكونت لدي فكرة أن
المكان يخص المرتبطين وحدهم.

وقفت أمام البوابة الرئيسية للمكان لعشر دقائق وهي مدة
بدت لي أطول من عدد حلقات المسلسلات التركية التي
تتابعها أمي.

أردت أن أتصل بها، هل تراجعت وتخلت عن مقابلي؟
لن ألومها، ما الذي يدفع شخصية متفائلة، تعانق والديها
مرتين يومياً، إلى الخروج مع شخص بأس مثلي، كلبه لا
يطيق أن يعانقه؟!!

راجعت الأيام الستة التي قابلتها فيها بالنادي.

كنت سخيلاً معها، وقليل الكلام، ونادر الابتسام.

اللجنة عليّ! ستة أيام تلقي عليّ التحية وأنا لم أخبرها باسمي

حتى.

لا شك أنها استيقظت اليوم ونظرت إلى المرأة، وقالت ما الذي يدفع فتاة مثيرة مثلي، كوكتيل بين ميريام فارس وروبي، إلى التسكع مع فتى باهت ومتجهم الوجه مثل عيسى شرف الدين؟!

بقيت عند البوابة، أتابع الشباب من جميع الطبقات الاجتماعية يمرون من جانبي برفقة حبيباتهم، ثم ينظرون إليّ من رأسي وحتى أنحصي، وكأنهم يقولون يا حرام، يا له من أعزب مسكين!

لن أذل نفسي وأنتظرها أطول من ذلك، سألمّ ما بقي من كرامتي وأرحل.

كنت على وشك أن أبتعد عن البوابة، ولكني رأيتها تعبر الطريق وتلوح إليّ بابتسامة لم أر في إشراقها لا في الواقع، ولا حتى على شاشات التلفزيون.

ما أطف تفاصيلها!

كانت ترتدي بلوزة وردية، درجتها نفس درجة لون القميص الذي استنكرت جدتي لونه، وجينز مرسومًا عليه بخيوط مبهجة وجه فريدا كاهلو، وترتدي بوسط رأسها باندانا تبرز غرتها على جبينها، بينما يتطاير باقي شعرها للخلف، وكأنه جزء من مشهد سينمائي ساحر.

ابتسمت لها واقتربت منها، فقالت:

- المعذرة، كلبتي كانت تأخذ تطعيماتها السنوية فتأخرنا

عند البيطري.

- لا بأس، لقد وصلت للتو. أنا أيضًا عندي كلب.

- حقًا؟ ما نوعه؟

- جريفون. في الحقيقة، هو كلب أختي البكرية. اسمها بتول.

- كلبتك اسمها بتول؟

- بل أختي اسمها بتول.

ضحكت ضحكة طفولية خرقاء فابتسمت لها رغماً عني.

- آسفة... أنا أيضًا كلبتي من فصيلة الجريفون الفرنسي.

- فعلاً؟ عظيم. لأكون دقيقاً، هو ليس كلب بتول وحدها، أنا أيضًا أعني به.

- يا للطف! ما اسمه؟

- اسمه؟ اسمه روي.

- اسم جميل! المرة المقبلة أحضره معك وأنا سأحضر كلبتي كي يتعارفا.

بمجرد أن سمعت كلمة المرة المقبلة ابتهج قلبي.

دخلنا إلى الحديقة النظرة، حيث تتشابك الأشجار الكثيفة عند السور المطل على النيل الذي يجلس فوقه الأحبة لالتقاط الصور التي تجمع الماء والخضرة والوجه الحسن.

تخطينا ككل المرتبتين بصعوبة بالغة، حتى دخلنا إلى

القصر وعيناي في وسط رأسي.

أقف خلف لارا وأمد ذراعاً على يمينها وأخرى على يسارها، تجنباً لأي احتكاك متوقع من هذه الكتل البشرية، ولكنها كانت تسير بين الناس باندفاع دون أن تحسب خطواتها أو تتوتر من الزحام، وكأنها لم تسمع عن التحرش في حياتها كلها.

مررنا من البوابة وأنا أتساءل، إن كان هذا العدد المهيب من البشر بالحديقة، فكم شخصاً سنجده داخل القصر لحضور المعرض؟

الإجابة، ولا شخص.

كان المعرض شبه خالٍ. لوحات دون متفرجين فيما عدا بعض الرسامين الشباب الجالسين على الأرض بالقرب من اللوحات يقلدونها أو يصورونها.

بمجرد أن دخلت لارا إلى صالة المعرض جذبتني من معصمي وشقت طريقها بحماس حتى وقفنا أمام لوحة صبي ينظر إلى يمينه، وعلى وجهه نظرات بائسة وتعبيرات باهتة تماماً كلبسه الرمادي التعيس.

شقت لارا انبهاراً وهي تهمس لنفسها:

- مانيه!

أخرجت من حقيبتها دقترًا متوسط الحجم وقلم رصاص وبدأت ترسم اللوحة نفسها، وأخذت تنقل نظرها بين اللوحة وما ترسمه بحماس مفرط.

لا أفهم سبب انجذابها إلى تلك الرسمة التقليدية، مجرد وجه فتى حزين. لا شيء إيجازياً في هذه اللوحة الزيتية التي يغلب على ألوانها البهتان والتعاسة!

- أتفضل مانيه أم مونييه؟

لم أكن أعرف أن هناك فرقاً بينهما، كنت أظنهما الشخص نفسه ولكنه فرق النطق لا أكثر.

لو سألتني عن الأدباء أو المخترعين لعرفتُ الإجابة الصحيحة، ولكن معرفتي بالرسامين منعدمة.

راقبت خواتم الفضة ذات الفصوص الفيروزية وطلاء أصابعها الأصفر، وتظاهرت بأنني لم أسمع سؤالها فوجدتها تقول:

- أنا شخصياً أحب مانيه، لأنه قاد انتقال الفن الفرنسي من المرحلة الواقعية إلى المرحلة الانطباعية. هل رأيت لوحته «غداء على العشب»؟

- غداء على العشب... نعم، بالطبع.

- إذن أنت تفهم قصدي، إنه باهر.

- وأنتِ كذلك.

توقفت عن الرسم ونظرت إليّ مبتسمة، ثم قالت:

- أنا مقدره ما تفعله.

- ماذا تقصدين؟

- أنت لا تحب مانيه ولا مونييه ولا أي شيء يخص

الرسم، لقد أتيت حتى لا تتركني وحيدة بعدما اعتذر مايكل.

- آه... حسناً، أنا حقاً... لا أعرف الكثير عن اللوحات، أتمنى أن تعلميني، ولكنني أتيت إلى هنا، لا لكيلا أتركك بمفردك... أعني، ليس هذا السبب الأساسي. في الواقع، مايكل ليس...

- لا تقل لي إنه يشك في إصابته بفيروس كورونا. لو كان الأمر كذلك لما ذهب إلى القديس الآن. الأحمق وضع على الفيسبوك صورة له مع كورال الكنيسة منذ عشر دقائق.

مايكل الأخرق!

ابتسمت لي مجدداً، ثم عادت لوضع اللمسات الأخيرة على لوحاتها، وأخذت تسهب في الحديث عن لوحات مانيه والفرق بينه وبين مونييه، ثم عن تاريخ قصر عائشة فهمي.

لم أكن أعرف أنها ثرثرة إلى هذا الحد.

قاطعت حصة الفن التي اندمجت فيها وسألتها:

- هل تحبين المعكرونة؟

يبدو أن صوتي كان عالياً من فرط التوتر، حتى إن مسؤول القاعة أشار إليّ بأن أخفض صوتي.

ابتسمت لارا ثم قالت:

- هل أصابك مانيه بالجوع؟

- ليس مانيه. ماجد أخبرني أننا حين نكون مع صحبة

طيبة نشعر بالجوع، أود أن أشاركك شيئاً أحبه، لا أحب شيئاً أكثر من المعكرونة بالصلصة الروزية.
- ماجد من؟

- طيبي النفسي.

اللعنة!

لقد أمضت معي ربع ساعة فحسب، وهأنذا أخبرها بتاريخي النفسي الأسود.

ساد الصمت للحظة وهي تنظر إليّ نظرة لم يتمكن عقلي من تفسيرها، ولكنني شعرت بضرورة ملحة للهرب.
- آسف... المعذرة.

وليت ظهري إليها وخرجت من قاعة القصر وضربات قلبي تتسارع والعرق يغزو كفي وإبطي.
أفسدت الأمر كلياً!

إنها لعنة فرح، ما كان يجب أن أتخطى أمرها الآن.
ما كان يجب أن أترك الفراش وأخرج.
من أظن نفسي؟

الآنني تمشيت بضع مرات في ساعة الشروق، صرت أحسب أنني انتصرت على الاكتاب وتعافيت من ظلمة نفسي؟

- عيسى! عيسى!

شعرت بها تهول خلفي في الحديقة بين حشود العشاق،

ولكن عقلي كان يأمرني بالرحيل عنها لأبعد ما يمكن،
حتى وصلت إلى الشارع الجانبي لبوابة القصر.

ما زلت أسمع خطوات قدميها الصغيرتين على الأرض
وصوتها يناديني حتى جذبت يدي فالتفت إليها وأنا أقول:
- آسف، ما كان يجب أن أنزل من البيت الآن! ليس
بعد، لست جاهزاً، آسف!

- ولكنني...

- لا عليك، أنا أفهم. أنتِ شخص سعيد، السعداء لا
يجالسون الحزاني أمثالي.

- من أخبرك أنني سعيدة؟

- أنتِ تعانقين أهلك مرتين يومياً.

- ماذا؟

- أنتِ باهرة. أقصد لو كانت البهجة نهرًا، لكنتِ منبعها
ومصبها. انظري إلى نفسك؛ فنانة حسناء، وأظن أنكِ
تُجيدين رياضة ما؟

- الجمباز.

- توقعت ذلك. تحبين هاري بوتر وجورج سيمنون،
وتعرفين الفرق بين المدرسة الانطباعية والمدرسة الواقعية.
ملابسك ألوانها مفرحة، أسنانك بيضاء كاللؤلؤ، لديك
غمازتان خلابتان، أنتِ تبسمين وكأن الشمس تشرق من
أجلكِ وحدك، بل وكأنك أنتِ الشمس نفسها.

- أنتِ مخطئ! أتدري لماذا سألتك عن ماجد؟ لأنني لا

أعرف شخصاً اسمه ماجد سوى الدكتور ماجد ملاك، وبما أنك في الزمالك وتعرف مايكل، اعتقدت أنك تعرفه مثلي.
- هل ماجد جارك أو صديق لوالدك؟

- بل كان طبيبي النفسي قبل أن أسافر إلى الكويت.

- طبيبك أنت؟ أنت أيضاً مصابة بالاكتئاب؟

- ليست كل الأمراض النفسية اكتئاباً يا عيسى.
أنا لست نشيطة ومقبلة على الحياة كما تظن، أنا أعاني اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط منذ الطفولة وقد رشحته والدة مايكل لنا.

- آسف، أسأت الحكم. لست شخصاً يميل إلى إصدار الأحكام على الآخرين قبل معرفتهم، صدقيني، أنا... أنا أمر بفترة اضطراب وخزي. أشعر بالكثير من الخزي وانحلال من نفسي، لا أود أن أفعل أي تصرف أحمق يجعلك تأخذين عني انطباعاتاً خاطئة. أنا أعافر كل يوم للاستيقاظ من النوم، ولكن طيلة الأيام الماضية مجرد تخيلي لرؤية ابتسامتك وأنتِ تلقين عليّ تحية الصباح، كانت كفيلاً بأن تدفعيني إلى النهوض من السرير. بالأمس، كنت متحمساً جداً لمقابلتك، إلى درجة أن الليلة الماضية كانت الليلة الوحيدة التي أنام فيها دون أن أبكي، لقد انشغلت بالتفكير فيما سأفعله وفيما سأقوله عند لقاءك حتى نسيت البكاء. لم يخطر على بالي أنني سأفسد الأمر وأتصرف معك بهذا الغباء، لست نكدياً يا لارا. كنت فتى يثق بنفسه ويجيد إلقاء النكات ويتحدث مع

البنات بسلاسة دون تلثم أو توتر. لو قابلتني منذ شهرين
لأعجبت بي على الفور.

- ومن أخبرك أنني أشعر بعكس ذلك الآن؟

- حقًا؟ حتى بعدما عرفت عني الآن؟

- بحقك يا عيسى، ألا تفهم بعد! لقد حضرت هذا
المعرض ثلاث مرات. لمَ قد أتججج برغبتني في قدومك
أنت ومايكل معي للمرة الرابعة؟
ابتسمتُ.

كان مايكل على حق، لارا تبادلني المشاعر ذاتها.

- حسنًا، أنت لم تُجيبني بعد، هل تحبين المعكرونة؟

- أكثر من الإيطاليين أنفسهم!



المرحلة الرابعة

الغضب

١٠

مريم

(قبل الجريمة يوم)

منذ أن عدنا إلى القاهرة وأنا أجد في يجو سلوكيات غريبة.

في البداية، اكتشفت أنه ملأ ثلاثتنا بالجة المستوردة، بعدها صدمت بأنه يدخن الحشيش كل مساء.

والآن، صار يستيقظ كل صباح ويتسلل من فراشنا بحرص حتى لا يوقظني، ثم يتجه للاختلاء بنفسه في غرفة استوديو أبيه التي عرّ عليه تحويلها إلى غرفة معيشة، وقرر أن يحتفظ بحالتها كاستوديو تسجيل صوت عتيق يطلق عليه اسم «الكهف الذكوري».

ما زلت أجد صعوبة بالغة في الحديث معه عن الأمر.

لقد قلبت جميع السيناريوهات في ذهني، الردود المتوقعة وغير المتوقعة كلها.

كل ليلة، أشعر بأنني مستعدة للحديث معه ثم أراجع في آخر لحظة.

أصبر نفسي على أنه سيعاشرني عاجلاً أم آجلاً.



الجنس ليس الشرط الأساسي للزواج الناجح بالتأكيد،
المهم حسن المعاملة وييجو يعاملني بلطف شديد، لا إهانة
ولا قسوة ولا ضرب ولا بخل ولا تلفت نظره أي أنثى
غيري، فهو يحترم وجودي.

يحسن ييجو إلى عائلتي وهم بدورهم يحبونه، خصوصاً
عيسى، يعتبره أخاه.

يزوره كل ليلة، يحادثه ويطمئن عليه، ويذهبان إلى صلاة
الرياضة للتمرن، وأحياناً يخرجان ويتسكعان معاً حتى
يروح عنه أو يقضيان ساعات لا تحصى بغرفة الاستوديو
يلعبان البلاي ستيشن.

كنا في حاجة إلى وجوده بسبب غياب أبي الدائم الذي
أخذ إجازة شهرين من العمل بحجة حضور زفاني، ولكن
ما إن انتهى عرسى حتى سافر مع زوجته الأوكرانية إلى
شرم الشيخ، ولم يقرر العودة إلى القاهرة إلا اليوم، بل
وطلب من ييجو أن يترك عروسته حتى يصحبه من المطار.
حركة غير لطيفة بالمرّة من أبي! كان شهر عسله الجديد
أطول من شهري عسلي أنا شخصياً.

بالطبع، زوجي الخدوم لم يرفض. هو لا يرفض طلباً لي
ولا لأمي.

أريد أن أذهب للتبضع يا ييجو، حسناً يا مريومة.

أريد أن أذهب إلى السينما يا ييجو، حسناً يا مريومة.

أريد أن أصلح حاسوبي المحمول يا ييجو، فلنشتري واحداً

جديداً يا مريومة.

طلباتي كلها مجابة قبل حتى أن أطلبها، ولكني ما زلت أشعر بالقلق والتوتر والضغط. ما الذي ينفر زوجي مني؟

قرأت على الإنترنت أن هناك فئة من الناس اسمهم «اللاجنسيون»، هم أشخاص لا يعانون أي أمراض عضوية وليست لديهم اتجاهات جنسية مريبة. كل ما في الأمر أنهم يكرهون الجنس ولا يحبون ممارسته ويستحيل أن تثيرهم جنسياً، لأن لديهم حاجزاً نفسياً منيعاً ضد الجنس بمختلف أشكاله.

مع ذلك، هم قادرون على بناء علاقة عاطفية ولكنها تظل عذرية إلى الأبد، وذكر الموقع أن إسحاق نيوتن وإميلي برونتي كانا من المشاهير اللاجنسيين.

هل هذه هي ميول يججو؟

بتول كانت على حق، لم يكن من المفترض أن أتزوجه بهذه السرعة.

كنت معجبة به منذ أن كان يأتي إلى أبيه كل صيف وأنا طالبة في المرحلة الثانوية.

من التي لن تعجب بهيج الذي يشبه ديمون سلفاتور؟

كانت له تلك الكاريزما الساحرة، وكانت لي رغبة ملحة في الزواج، فأنا لا أريد حياة الوحدة والعزوبية التي اختارتها بتول، ولا حياة العمل الشاق التي عاشتها جدتي، ولا أتمنى حياة الزواج الصوري التي تحياها أمي.



كان طموحي تقليدياً ومشروعاً؛ أخرج في كلية الآداب بتقدير ممتاز، ثم أتزوج وأنشئ بيتاً وأنجب أطفالاً.

أستيقظ مبكراً، أعد لأسرتي الفطور، زوجي يُقبل يدي بامتنان، أجهز الأولاد للذهاب إلى المدرسة بعدما حضرت لهم اللانش بوكس، ثم أتواصل مع زوجي طيلة اليوم من خلال الواتس آب، بينما أشرف على عمل الخادمة وتنظيفها للبيت، وأعد الغداء ثم يعود زوجي الحبيب، فيلقاني بتياب مثيرة ورائحة عطرة وابتسامة واسعة، ويقبلني قبلة عميقة مثل التي يتبادلها الأجانب.

وربي لم أطل حتى القبلة منذ أن تزوجت!

بدأت أوّمن بمقولة جدتي، «نحن عائلة منحوسة لا تجذب نساؤها سوى الرجال الخائين».

وفي الواقع، بدأت أملُّ من خيبة زوجي غير المفهومة وغير المبررة على الإطلاق.

في بداية خِطبتنا، كنت أحترمه كثيراً، لأنه لم يكن ينظر إليّ نظرات اقتراس جنسية كالتي ينظرها إليّ زملائي بالجامعة.

كان الرجل الوحيد الذي ينظر إلى عيني حين أحادثه وليس إلى صدري.

الغريب، أن الوضع لم يتغير بعد الزواج، حتى الآن لا يختلس النظر إليّ بأي شكل.

أتعمد تغيير ثيابي أمامه، أعرض عليه أن أحمله بنفسه،

أقترح أن أمسد له ظهره قبل النوم.

دائمًا ما تكون إجاباته: لا، لا، شكرًا يا مريومة.

ولكن اليوم، سأضعه أمام الأمر الواقع، فإما أن يطارحني بالغرام، وإما أن يصارحني بما يمنعه من ذلك.

نهضت من الفراش سريعًا، خلعت ملابسي كلها، سرحت شعري، وضعت بعض الحمرة على وجنتي وشفتي، ثم عطرت في وبدني، وخرجت من الغرفة لا أضع شيئًا سوى روب حريري شفاف لا يستر ولا ينفع.

اتجهت إلى غرفة الاستوديو وأنا أفكر في الجمل المثيرة التي سمعتها بالأفلام الرومانسية الأمريكية التي أحفظها عن ظهر قلب، فأقولها لزوجي بنبرة مغرية تشعل في قلبه الرغبة.

فتحت الباب على مهل، ولحت ما يفعله.

توقفت في مكاني وقد تيبست أوصالي، وعجز عقلي عن استيعاب ما تراه عيناى!

الآن فقط، فهمت سبب انعدام رغبة زوجي فيّ.

لم يعرف أنني رأيت شيئًا.

تسللت في هدوء تام وعدت إلى غرفتنا وتظاهرت بالنوم العميق، بينما سمعته يستحم ويستعد للخروج لاصطحاب أبي من المطار.

بمجرد أن خرج من الشقة جلست في الفراش أبكي.



أي مصيبة هذه!

لماذا أنا بالذات التي تقع في مأزق كهذا؟ لست خبيرة
بالثقافة الجنسية مثل بتول حتى أجد مخرجاً من تلك
الكارثة، ولست مسالمة مثل أمي لأقبل وضعاً مشيناً كهذا.
ربطت الروب على خصري وخرجت من الغرفة بعد
بكاء طويل، عسى أن أكون ظلمته أو أسأت الفهم.
جلست إلى الطاولة المقابلة للزجاج العازل للصوت حيث
حاسوبه المحمول.

فتحته ولكنه طلب مني كلمة السر.

جربت التواريخ كلها.

تاريخ زواجنا... بالطبع خطأ. لم يري في تاريخ زواجنا
اللعين قيمة حتى يجعله كلمة سر حاسوبه!

تاريخ ميلاده، تاريخ ميلاد والدته، تاريخ ميلاد والده.
خطأ، خطأ، خطأ!

من أخادع على أي حال؟ لا داعي للتأكد، أعرف ما
رأيت.

لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا أفكر فيما يجب فعله.
هل أصارحه وأطلب منه الطلاق أم أستشير بتول أولاً؟

في جميع الأحوال يجب أن أتظاهر بأن شيئاً لم يكن حتى
ينتهي غداؤنا العائلي مع أبي وأمي، وبعدها سأجد حلاً
لهذه المشكلة.

كدت أنهض لأتجه إلى غرفتي وأعد نفسي لملاقة والدي، ولكن فُتح الباب ووجدت يجو يدخل الغرفة ثم يغلق الباب خلفه.

تفاجأ لرؤيتي في الداخل، فسألني وهو يمضغ علكته ويداعب مفاتيحه:

- ماذا تفعلين هنا؟

- كنت... أتفقد... كنت أتفقد الغرفة.

- لماذا؟

- لتنظيفها، سندعو أبي إلى الشقة، قد يود تفقد الغرفة.

- هل أخبرته شيئاً؟

- أخبرت مَنْ؟

- أباك. هل شاركته أسرار فراشنا؟

- عمّ تتحدث؟ لا توجد أسرار بيننا حتى أشاركه إياها.

اقرب مني وهو يطرق علكته في الهواء ثم قال:

- حسناً، دعيني أعيد صياغة السؤال كي تستوعبيه، طيلة

الطريق من المطار وحتى المنزل، كان أبوك يحدثني عن

أمراض الضعف الجنسي التي تصيب جيلي وعن فوائد

الفياجرا ومختلف أنواعها، ثم أنهى حديثه بتربيته على

نخذي وهو يقول تشجع يا رجل، نريدك أن تملأ البيت

أحفاداً. لا أدري يا مريومة، لم يسعني سوى التفكير في

أنك حنثت بوعدك لي. ألم نتفق قبل الزواج بأن ما سيدور

في هذا البيت، سيبقى في هذا البيت؟



أربكني.

كان يطرق علكته ويخشخش مفاتيحه بين أصابعه،
وترمقني عيناه الراكزتان بنظرات حادة، شعرت بأنها
تخترقني وأني إن نطقت بحرف خطأ سأدفع ثمنه على
الفور.

لم أشعر بهذا القدر من الخوف والارتباك من قبل، ولم
أظن قط أن لبيجو المرح، هيبة قشعرت بدني.

قلت وأنا أحك حاجبي بتوتر:

- لم أنطق بحرف! أبي يتمنى لنا الذرية الصالحة فحسب.

بصق علكته في يده ثم ألقاها في المرمدة، وقال بالنظرات
الحادة نفسها:

- أصدقك، فالعاهرات هن اللاتي يخرجن أسرار فراشهن
لأهاليهن. لستِ عاهرة، مريومة. أليس كذلك؟

هزرت رأسي نفيًا، بينما نظر إليّ من رأسي حتى أنحصي
ثم قال:

- ما هذا الذي ترتدينه؟ أستلقين أباك هكذا؟

- كان هذا من أجلك... من أجل أن... يجو، هل يمكن
أن نتحدث؟ لم أعد قادرة على الصمت لأطول من ذلك،
هل تود أن نذهب إلى طبيب؟

- طبيب من أي نوع؟

- من النوع الذي تحتاج إليه؟

- تكلمي بوضوح.

- ألم يحن الوقت كي نتم زواجنا؟ العلم تقدم كثيراً، أنا سأدعمك، لن...

- هذا ليس كلامك، إنه كلام بتول، أليس كذلك؟ هل أخبرتها؟

- لا! أنا لم أقل شيئاً. هذا كلامي أنا.

- منذ متى وأنت تفهمين في العلم والتقدم الطبي والدعم النفسي؟

- لماذا تقلل من شأني؟ أنا أود أن أساعدك، أريد أن أصبح زوجة طبيعية و...

- بل تريد أن تصيري عاهرة!

صاح بعنف مبالغت، ثم ركل المقعد قائلاً:

- هذا مفهوم الزواج بالنسبة إليك؟ أن تكوني مطيتي!

- اخرس! كيف لك أن تحادثني بهذه القذارة!

- لأنك غبية! ألم تفكري لماذا أنفر منك؟ أنتِ مثيرة

للاشمئزاز! ترتدين أثواب نوم خليعة كالباغايا وتسيرين أمامي

عارية وتودين أن نتحمم معاً وكأنك عاهرة متمرسة! لقد

انكشف وجهك القذر وخلعتِ قناع العذراء النجول التي

تتورد وجنتاها إن لمستُ كفيها.

- تنعتني بـ«العاهرة» لأنني أترين وأتغنج من أجلك بعدما

صرت زوجتك وحلالك؟

- لو كنت أبغي الزينة والغنج لتزوجت غانية من الشارع،
وليس عذراء بنت حسب ونسب.

- وهل زينتي وغنجي هما اللذان يدفعانك إلى مشاهدة
تلك الأفلام الإباحية القدرة، يا بهيج دامس؟
- بأي ترهات تنطقين!

- رأيتك هذا الصباح. رأيت نوعية الأفلام التي تشاهدها
وأني جنس تحبه... أنت لا تتمتع عني لأنني عاهرة كما
تقول، ولا لأنك تعاني خلافاً عضوياً يعوقك عن معاشرتي.
أنت قدر وحقير ومريض!

حدق إليّ لثوانٍ، ثم زفر بعمق وقال بصوت خفيض:
- مريض! أنا لا أحب هذه الكلمة. لا أحب هذا
الوصف، يا مريومة يا حبيبتى.

اتجه نحو باب الغرفة، أوصدها بالمفتاح، ثم ألقى مفاتيحه
على الطاولة، وخلع حزامه وهو يقول:
- لك ما تريدينه يا مريومة!

- ماذا تفعل؟ ابتعد عني!
- سأتم زواجنا يا حبيبتى، إنه حقك الشرعي عليّ.
- لا أريدك، بعد الآن. ابتعد عني، طلقني وحسب.

خلع سرواله فحاولت أن أنتشل المفاتيح من على الطاولة،
ولكنه اندفع صوبي وصفعني بعنف، فطارت فردة قرطي
الأسود.

دفعني بكل قوته فسقطت على ظهري.

صرخت بأعلى ما يمكن وأنا أنادي أمي وأبي، ولكني أعلم علم اليقين أن صوتي لن يتخطى جدران وزجاج الغرفة العازلة للصوت.

مزق الروب عني بوحشية وأنا أقول له باكية:

- توقف! أرجوك توقف! أنا آسفة، أنا آسفة. لم أقصد، أرجوك. لن أخبر أحداً، اتركني!

لم يلتفت إلى كلامي.

كان تركيزه منصباً على أن ينهشني بقسوة وعنف، وهو يضغط على معصمي ليثبتهما أرضاً دون حراك.

رأيت في عينيه نظرة جنون وحشي لم ألمحها في بشر من قبل.

لم أحتمل رؤية تعبيرات وجهه وهو ينتهكني، فخدقت إلى السقف وأنا أبكي وأصرخ حتى ينتهي وينهض عني قبل أن أموت من الفاجعة والألم.

لم يستمر الأمر لأكثر من ثلاث دقائق من الضراوة والوجع الذي اجتاح بدني كله، حتى فرغ مني وترك يدي ثم نهض عني.

نظر إليّ لاهثاً لثوانٍ، ثم بصق في وجهي وصرع نخذي قائلاً:

- عاهرة!

نهض وهو ينتشل حزامه من على الأرض، فأعاد ارتدائه

ثم أخذ مفاتيحه من على الطاولة.

خرج وتركني عارية أحرق إلى السقف بمفردي.

سمعت صوتاً يشبه أنين كلب جريح، بعد بضع لحظات أدركت أنه صوتي، ولكنه كان بعيداً وغريباً عني.
لم أصدق ما ألم بي، عقلي لا يستوعب ما حدث لي منذ ثلاث دقائق!

انتفض بدني كله وشعرت بالعرق يتقطر من كل مكان، حتى معدتي لم تسلم من المعاناة، وصرت في حاجة مقيتة إلى التقيؤ فركضت صوب الحمام، وكل عظمة في جسدي تشكو من التعب.

أفرغت معدتي، ثم شعرت بألم عظيم بين فخذي.

ألقيت نفسي داخل مغطس الحمام بصعوبة بالغة، وجلست بداخله وفتحت على نفسي الصنبور.

اختلفت دموعي مع الماء والعرق وكل ما علق بي، ثم رأيت خيطاً من الدم ينزل في البالوعة.

اكتشفت أنني أنزف من قسوة ما عانته، فتمكن مني الرعب وانتشلي من حالة الحسرة على نفسي.

بقيت في الحمام حتى سمعت صوته يغلق خلفه باب غرفة نومنا.

انتهزت الفرصة وارتديت ثيابي المعلقة خلف باب الحمام منذ عودتي من خروجة الأمس مع صديقتي، ثم تسلفت إلى الصلاة بأسرع ما يمكن والماء يتقطر من شعري.

انتشلت المفاتيح وخرجت دون حتى أن أقفل باب
الشقة خلفي حتى لا يشعر بهيج بي ويعترض هروبي.
في طريقي وأنا أنزل السلم، اكتشفت أنني أسير حافية،
ولكني لن أخاطر بالعودة إلى البيت.
ركبت سيارتي وانطلقت إلى طيبة النساء الخاصة بي،
لتوقف هذا النزيف اللعين قبل أن أموت.

لم أدرك كم كان منظري مرعباً إلا حين ركبت المصعد
المؤدي إلى عيادة الطيبة ورأيت انعكاسي الباهت في
مرآته، فبكيت حالي رغماً عني، حتى وصلت إلى الطابق
المنشود.

لحسن حظي لم أنتظر طويلاً، دخلت إلى الطيبة على
الفور.

كانت الدكتورة سناء هي طبيبتنا منذ سن البلوغ وهي
التي ولدت أُمِّي.
بمجرد أن رأت حالتي تلك أصابها الذعر، سألتني ماذا
صار؟

عجزت عن الكلام، أخبرتها فقط أنني أنزف.
بمجرد أن طلبت مني أن أفرج ساقِي، استرجعت تفاصيل
ما فعله بهيج بي، وأجهشت بالبكاء.
أخذت ترتب علي كتفي وتعتذر إليّ وهي تفحصني،
حتى قالت:

- عزيزتي، انتهيت. يمكنك أن ترتدي ثيابك مجدداً.

نفدت ما قالته، ثم اقتربت مني وجلست أمامي قائلة:
- مَنْ فعل بكِ هذا؟ لا تخافي. أنا معك، سأُتصل
بالشرطة وسوف نزع بهذا الحقيِر القدر في السجن. لم يعد
المجتمع يتساهل مع قضايا الاغتصاب، هيا، لا تقلقي...
مَنْ فعلها؟

- بهيج، زوجي!

- زوجك؟ أرحت قلبي يا بنيتي، اعتقدت أنك تعرضت
للاغتصاب.

- أنتِ لا تفهمين، لقد عاشرني ضد إرادتي. لقد اعتدى
عليّ وضاجعني بعنف، لم يكن يطارحني الغرام، كان
يغتصبني.

- ما زلتِ شابة بريئة ولا تفهمين، الجنس ليس دائماً
رقيقاً وعاطفياً كما ترينه في الأفلام الرومانسية. كل ما في
الأمر أن زوجك غشيم وقليل الخبرة.

- قليل الخبرة؟

- نعم، لقد انتابه الحماس فتخطى حدود اللين معك.
حاولي أن تطلي منه أن يرفق بكِ في المرة المقبلة،
سأكتب لك بعض الأدوية حتى تستردي عافيتك
وتصبحي جاهزة لممارسة حياتك الطبيعية مع زوجك، يا
عروستنا.

- حياتي الطبيعية؟ أهذه حياة طبيعية؟ أقول لكِ إنه
اغتصبني يا دكتورة سناء.

- حبيبي، معاشره الزوج لزوجته ليست اغتصاباً.

- ولكنه حبسني في الغرفة وكتفني وضربني و...

- حتى لو عنفك، هذا ليس اغتصاباً، لو شخص ما وضع أمواله داخل خزانة ثم قرر أن يكسرها ويأخذ منها ممتلكاته، أتكون هذه سرقة؟

حبست الدموع في عيني، ونهضت عن السرير وأنا أصبح فيها:

- لست خزانة أموال! أنا إنسانة!

نصرة

(ليلة الجريمة)

في أكتوبر ١٩٧٣، نجح جيشنا في عبور قناة السويس، ولكن وجد العدو ثغرة مكنته من الدخول إلى السويس، موطني.

كنت من فدائيات السويس كما كانت أمي خلال العدوان الثلاثي.

كنت أعمل كمرضة طيلة فترة الحرب. يُنقل إلينا المصابون من جنود ضفة القناة الشرقية فأحسن الاعتناء بهم أنا وزوجي، شرف الدين، ولكن حين اقتحم العدو منطقتنا، حملت وزوجي السلاح وخرجنا لملاقاته.

قصف العدو مدينتنا جواً، واستهدفوا خزانات المياه والمواسير وأماكن التموين والمؤن ووحدات الاتصال.

ضربوا المدينة، ولكن عجزوا عن غلبتها.

ساهمت أنا وزوجي في مهمات تكاد تكون مستحيلة للتسلل بين دبابات العدو ومدرعاته، حتى نتمكن من الوصول إلى محل البقالة الوحيد الذي به هاتف يعمل، فنقل إلى القيادة أخبار ما يحدث تحت هذا الحصار اللعين.

الجوع والعطش يصارعاننا. نهي صيامنا على كسرات

الخبز مع البصل المقلي والمخلل.

الأدوية قليلة، والمياه تنقطع اليوم كله ثم تعمل لساعتين فقط.

العدو يقصف أي سيارة إسعاف متجهة إلى خارج المدينة لإنقاذ الجرحى والمصابين.

الرجال يصنعون المتاريس والكجائن والأخاديد حتى يتصدوا للعدو، ويقابلون المدرعات والدبابات بالطبنجات والرشاشات.

النساء يداوين الجراح، يصنعن الطعام، يُطعمن الأفواه، يؤازرن، يعاضدن، يرتبن على الأكتاف، ويحملن السلاح ويسقطن جنود العدو خلسة.

القيادة أعلنتها لنا صراحةً « كان الله في عونكم، سنحارب من أجل النصر حتى آخر فرد».

استبسلنا!

أنا وحدي أصبت ببندقيتي من نافذة مبنى مهجور عشرات الأفراد من جنود العدو، وقد كنت حاملاً في الشهر السادس.

أما شرف الدين فحدث ولا حرج. كان غضنفرًا ابن غضنفر، يقفز من النوافذ على الدبابات، يزحف أسفل المدرعات، يركض تحت وابل من الرصاص ثم يضرب بمدفع الآر بي جي دبابة يعطل بضرها تقدم خط الدبابات المكتسح للمدينة كلها.

كان بطلاً!

قبل صدور قرار وقف النار في مدينة السويس بأربع ساعات، كنت في المشفى أساعد الممرضات بخبرتي علي تضميد الجروح، ثم وجدتهم يدخلون علينا حاملين رجلاً مصاباً بشظايا قذيفة، فقد ذراعه اليسرى وساقه اليمنى وخرجت أمعاؤه، ولكنه ما زال حياً.

كان هذا الرجل هو زوجي الشهيد شرف الدين.

كان يصارع الموت ويؤجله ما استطاع، حتى يتمكن من توديعي.

هربت مني الدموع وهو يضع يده على بطني المنتفخ ويكرر:

- منتصر، منتصر.

نطق الشهادة ثم مات.

صرخت زميلتي بمجرد أن غربت روح زوجي، ولكنني صحت فيها وأمرتها بالصمت.

زوجي بطل، لا نندب ونصرخ ونلطم ونشق ثيابنا على موت الأبطال.

الأبطال لا يموتون.

زغردت والدموع تسيل على وجنتي.

لم أتوقف عن الزغردة حتى نبج صوتي، ولو لم نكن تحت هذا الحصار اللعين والله لوزعت الشربات.

أحسنت دفنه أنا وأخوه أشرف، ثم أكملت عملي.
النساء يستشهدن بتماسكي، والرجال ينادونني بـ«السيدة
نصرة البطلة».

أسير رافعة الرأس، أحمل السلاح متى استطعت،
وأساعد بالمشفى حتى تورمت قدماي وتقرحتا، ولكني لم
أشك.

لم يشك أحد من أي شيء في السويس، أنزل الله
سكينته ورضاه على قلوبنا أجمعين.

وقتها، كنا نسير في الشوارع المدمرة بين المباني التي غدر
بها القصف، ونعجز عن التفريق بين البطل العسكري
الذي يحارب بالسلاح وبين البطل المدني الذي يحارب
بالعلاج والدواء. كنا جميعاً محاربين شرسين.

في اليوم المائة من الحصار، وضعت ابني بدون أي
مسكات أو مخدر.

أصرخ باسم شرف الدين وأناديه. والله كنت أراه واقفاً
خلف الطيب، يهتف لي كي أتماسك وآتي بابننا إلى الدنيا
بسلام.

أتممت الولادة على خير، وأسميته منتصر، كما وعدت أباه
ثم تعافيت وأكملت العمل مع أخواتي.

في الصباح التالي، انتهى الحصار بعد مائة وواحد يوم من
الجوع والعطش والدمار والموت.

انتهت الحرب ولم يعد الناس ينادونني باسم نصره البطلة،

صرت أم منتصر.

تحررت المدينة، وحبست أنا في قفص المجتمع وعادات عائلتي الصعيدية.

في أغسطس ١٩٧٤، أجبروني على الزواج بأشرف، شقيق حبيبي المرحوم.

كان يعاني مرض السكري حتى جف ماء عوده، وأصبح يعاني ضعفاً جنسياً شديداً.

كانت هذه أعظم صفاته، لأنني لم أكن لأتحيل معاشرته رجل غير شرف الدين، وقد سعد أشرف كثيراً بتفهمي وعدم اعتراضه على عيشنا معاً كأخوين.

كان رجلاً هادئاً، كريماً، عامل ابني منتصر أحسن معاملة.

لم يرفع صوته عليّ طيلة الفترة التي عشناها معاً، ولم يشك أي منا الآخر، ولم يسمع لنا الجيران صوتاً.

لذلك، لم يشك في أحد حين قتله بجرعة زائدة من الأنسولين أدت إلى دخوله في غيبوبة سُكَّر شرسة، ومع تعمدي عدم نقله إلى المشفى مات في صمت كما عاش في صمت.

لولا أنني خطرْتُ بأنني قتلت زوجي الثاني، وأنا تحت تأثير البنج بعد أن خرجت من عملية الاستئصال الكلي لغدتي الدرقية، فسمعتني بتول وأنا أعترف بذلك، لما عرف أحد أبداً أنني قتلته.

لا أحد على وجه الأرض يعرف ما فعلته بزوجي سنة
١٩٧٥.

لا يوجد دليل ضدي، ولكن لن أتردد عن ذكر الأمر
بالتفصيل أمام هذا الضابط المدعو نوح الألفي حتى يصدق
أنني لست مجرد عجوز لطيفة، بل أنا من أطلق الرصاص
على رأس هذا القدر.

نظر نوح إليّ نظرات ريبة وشك وهو يقول:

- كذبتك يا جدة يؤكد أنك تفدين أحد أفراد عائلتك.
هذه الجريمة ليست من صنعك.

- لا أكذب يا ولدي. أنا صاحبة المسدس، وأنا من
قتلته بكامل إرادتي. إذا لم يمت قبل وصوله إلى المشفى،
نخير وبركة، لن أعدم. وإذا مات، فهنيئاً للمجتمع، فقد
خلصته من هذا المجرم.

- أتظنني ولدت أمس حتى أصدق ادعاءك؟ كنت من
فدائيات السويس وتملكين بدل السلاح اثنين وعجرت عن
التصويب وقتله وهو واقف أمامك؟ تطلب الأمر منك
رصاصتين حتى تقتليه؟

- إنها الشيخوخة يا ولدي. حفظ الله شبابك.

- حتى وإن صدقتك، مسار انطلاق الرصاصتين يوضح
لي أن طول من أطلقهما شخص قصير، شخص في طول
حفيدتك، مريم التي تظاهرت بالنواح والعيويل.

- أليك دليل يدين حفيدتي؟

- أَلَدِيكِ أَنْتِ دَلِيلٌ عَلَى جَرِيْمَتِكَ غَيْرِ إِفَادَتِكَ الْمَلِيَّةِ
بِالْشُّغْرَاتِ؟

- مَاذَا تَرِيدُ غَيْرَ اعْتِرَافٍ وَاضِحٍ وَصَرِيحٍ؟

- إِثْبَاتًا دَامِغًا. إِذَا أَخَذْتَ مَلَابِسَكَ إِلَى الْمَعْمَلِ الْجِنَائِيِّ،
هَلْ سَيَجِدُونَ عَلَيْهَا آثَارًا لِبَقَايَا الطَّلُقِ النَّارِيِّ النَّاجِمَةِ عَنْ
اسْتِعْمَالِكَ لِلْمَسْدَسِ؟

- قَتَلْتَهُ بِمَلَابِسٍ غَيْرِ الَّتِي أَلْبَسَهَا الْآنَ.

- أَرِينِي إِيَّاهَا إِذْنَ.

- حَرَقْتُهَا قَبْلَ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ فِي الْقِسْمِ.

- مَاذَا عَنْ يَدَيْكِ؟ هَلْ سَأَجِدُ عَلَيْهِمَا آثَارَ الْعِيَارِ النَّارِيِّ؟

- غَسَلْتُهُمَا بِصَابُونِ الصُّحُونِ السَّائِلِ وَعَقَمْتُهُمَا بِالْكَحُولِ
ثُمَّ دَهَنْتُهُمَا بِمِرْطَبِ دَسْمٍ، أَتَحْسِبُنِي مُبْتَدِئَةً يَا وَلَدِي؟

- حَسَنًا، أَيْنَ الْجَرْحِ النَّاتِجِ عَنْ لَمَسِ أُسْطُوَانَةِ الْمَسْدَسِ؟

- أَتُخَالِنِي لَا أَجِيدُ مَسَكَةَ مَسْدَسِي؟

- لِمَاذَا إِذْنَ أَجِدُ آثَارَ جَرْحٍ مِنْ مَوْضِعِ إِطْلَاقِ الرِّصَاصِ
وَأَيْدِيكُمْ جَمِيعًا سَلِيمَةً فِيمَا عِدَا يَدِ الْآنَسَةِ بَتُولِ؟

- فُكِّي الشَّاشَ يَا بَتُولَ حَتَّى يَتَأَكَّدَ الضَّابِطُ مِنْ أَنَّكَ
جَرَحْتِ نَفْسَكَ الْيَوْمَ مِنْ زَجَاجِ الْكُوبِ الْمَكْسُورِ.

رَأَيْتِ بَتُولَ الْعَزِيزَةَ مَتَوْتِرَةً وَتَضَعُ يَدَيْهَا خَلْفَ ظَهْرِهَا
وَتَقُولُ:

- لَا دَاعِيَ لِلْكَذْبِ يَا جَدَّتِي. يَا حَضْرَةَ الضَّابِطِ أَنَا

القاتلة.

- انخسي يا حمقاء! دعك منها يا ولدي، تود إنقاذ جدتها
العجوز من السجن فحسب.

جذبت يدها عنوة ومزقت الشاش لأري الضابط جرح
سبابتها القطعي موضع زجاج الكوب الذي كسرتة بتول
في أثناء ثورتها الانفعالية ظهيرة اليوم.

قلت للضابط:

- انظر! جرح زجاج وليس أثر شظايا أسطوانة المسدس.

هز رأسه وقد بدت عليه خيبة الأمل، ثم قال:

- حسناً، مَنْ صاحب الدم والجلد اللذين وجدتهما على
الأرض؟

- لا علم عندي.

- فلتريني المسدس إذن.

يا له من خبيث!

يود أن يفحص المسدس حتى يجد على أسطوانة
رصاصته آثار الشخص المجرور ويقارنها بعينات دمنا
وبصماتنا جميعاً ليعرف القاتل الحقيقي.

تظاهرت بالبلاهة وأنا أقول:

- إليك الحقيقة يا بني، حين تصل إلى عمري ستصير دائم
النسيان، لقد خبأت المسدس في مكان لا يعلمه سواي
حتى لا تنكشف خطتي، ولكن يبدو والله أعلم، أن



ذاكرتي خانتني مجدداً ونسيت مكانه.

زفر نوح ودعك عينيه المرهقتين، ثم وقف بجوار زميله
قطز.

همس إليه وتبادلا بضع جمل وهما ينظران صوبي، حتى
هز قطز رأسه واقترب مني قائلاً:

- تعالي معي يا جدة. سنضطر إلى أن نعود إلى القسم
لأخذ أقوالك وعمل اللازم.

مد ذراعه صوبي كي أتأبطها ولكن قطع تقدمنا دخول
ابني منتصر إلى الصلاة وهو يصيح كالتيس:

- ماذا يجري؟ من هذان؟

نهره نوح:

- لم الصباح يا أنت؟ من تكون؟

- تقف في شقة ابنتي وتساءل من أكون؟ أنا السيد منتصر
شرف الدين.

التفت وحيدتي إليّ وسألني:

- من هذا الذي نتأبطين ذراعه يا أمي؟

- إنه الضابط الذي أتى للقبض عليّ، يا خيبة أمك.

- ضابط؟ ألم أخبرك ألا دخل للشرطة بما حدث؟

انظري إلى ما قارك إليه عنادك! ألم يكفك ما فعلته
برأسي؟

أشار منتصر إلى مؤخرة رأسه مكان كعب بندقيتي،

فضحكت بمزيج من المرارة والظفر، ثم قلت لنوح:

- رأيت يا حضرة الضابط؟ كدت أشج رأس ابني
الوحيد لأنه عصى أمري، ألا يُعد إطلاق الرصاص على
رأس هذا الغريب رد فعل بسيطاً مقارنةً بما ارتكبه في
حق أحفادي؟

بتول

(قبل الجريمة يوم)

تجاهلت صياح أبي المعتاد سماعه في كل مرة يتكرم فيها
بزيارتنا.

كان معترضاً على كل شيء.

على أننا لم نأتِ مع بهيج لاستقباله في المطار، على أن
عيسى عصاه وذهب إلى الطبيب النفسي، وأنه سيفوت
الغداء العائلي المقدس، لأن ميعاده يتداخل مع ميعاد
جلسته النفسية. وبالطبع كان لي نصيب الأسد من
اعتراضات أبي.

لماذا أدخلت كلباً إلى بيته؟ لماذا صرت أرثدي التريون
وهو خرقة لا تليق بوصف الحجاب؟ لماذا أتسكع على
المقاهي حتى وقت متأخر مثل المنحرفات؟ أي عمل هذا
الذي يُنجز في المقاهي؟ لماذا أرفض سماع تفاصيل وصفه
للعريس الجديد الذي أحضره لي؟ يجب أن أحمد ربي أنني
مقبلة على عمر الثلاثين وما زال يتقدم الشبان لخطبتي.

الكثير من الثروة الفارغة، والذكورية السامة التي جعلها
المجتمع سلاحاً في يد الرجال أمثال أبي حتى ينكدوا علينا
عشنا.

أهزُّ رأسي. ابتسم ابتسامة شديدة البرود. أقول إن شاء
الله، يا حاج منتصر.



ينعتني بـ«المستفزة»، ويهددني بكسر رأسي العنيد هذا.
يسبني. يسأل الله أن ينزل عليّ لعناته، فتنهاه جدتي عن
هذا وتصيح فيه فيضطر إلى أن يصمت.

جلست العائلة البائسة إلى مائدة الغداء.

لم ينضم إلينا بهيج ولا مريم، تجاهلا مكالماتنا.

ودت أُمي أن تصعد لطرق بابهما، ولكن أبي أخبرها
أنه تحدث حديثاً تحفيزياً مع بهيج في طريقيهما من المطار
وعله ينفذ نصائحه الآن، ثم غمز لأُمي وقال دعي العريسين
وشأنهما، فقد آمني رأسي ليلاً ونهاراً بثرثرتك عن تخيلك
لأحفادك المستقبلين.

بجح!

وزعت أُمي الطعام في أطباقنا، وفي أثناء الطعام انشغلت
في تقلاب منشورات الفيسبوك.

صاح أبي واعترض على ذلك، ولكنني تجاهلته، لم أعد
مراهقة حتى يأمرني وينهاني.

أكلت ما أفعله بالبرود والتجاهل أنفسهما حتى رأيت
صورة أثارت حفيظتي وتوتري وأخرجتني من فقاعة
اللامبالاة التي أحبس نفسي في داخلها كلما زارنا أبي.

صورة الأستاذ وليد الكيلاني، معلم العلوم الذي كان
يدرّس لي وأنا في الصف الخامس الابتدائي.

كان منشور نعي شاركته إحدى زميلاتي من مدرستي
الابتدائية، كانت من القلة التي لم ينقطع التواصل بيننا

بعدها انتقلتُ إلى مدرسة أخرى.

أصابني القشعريرة وشعرت بضيق التنفس وبالوهن.
مات الأستاذ وليد الكيلاني، والجميع يدعو له بالرحمة،
ويسألوننا أن ندعو لأهله بالصبر والسلوان.

- ما خطبك يا بنيتي؟

التفت لأجد جدي الجالسة قبالي تحديق إليّ بقلق.
تركت هاتفني وأجبتها بصوت واهن:

- لا شيء.

قلبت صحن الشوربة، ولكن الذكريات كلها هاجمتني
دفعة واحدة دون هوادة.

زاد خفقان قلبي ورعشة أصابعي الممسكة بالملعقة،
وبدأت أهرق قلمي بشكل لا إرادي وشعرت بأسناني
تصطك ببعضها.

- بتول ما الأمر؟

لم ينتبه أحد لحالتي سوى جدي، فأجبتها بصوت أقرب
إلى الصراخ الحاد:

- لقد مات وليد الكيلاني! مات اليوم!

توقف أمي وأبي عن الأكل وتبادلا النظرات.

لم أتمالك أعصابي؛ ضربت السفرة بعنف فحطت يدي
على الكوب الزجاجي فانكسر وجرح سبابتي جرحاً طويلاً.
شهقت أمي وهمت أن تنهض حتى تطمئن على جرحي،

عيسى

(قبل الجريمة يوم)

أخذت من ماجد كيس رقائق البطاطس بالجبنة
وزجاجة المياه الغازية.

استرخيت في مقعد البين باج الملون، فجلس على المقعد
المقابل لي.

قصصت عليه تطور علاقتي بلارا، مقابلاتنا كل صباح
للسير معاً بمحاذاة النيل، ثم ركوب السكوتر الكهربائي في
طريقنا إلى النادي والقفز في المسبح، ثم تناول الفطور
وشرب عصير الليمون بالحليب.

كنا نحب الأطعمة ذاتها من المطاعم نفسها، الموكا الباردة
وكعك الشوكولاتة من مقهى «No Deal»، آيس كريم
الزبادي بالتوت من «Gelato Amareno»، المعكرونة
الروزية بالدجاج من «O's Pasta»، وبيتزا المارينارا
المخصصة من «Maison Thomas».

ابتسم ماجد قائلاً:

- أرى أن شهيتك تحسنت.

- نعم، أعتقد أن الأمر مرتبط بها. جلوسها أمامي يفتح
شهيتي، حتى في غيابها، بمجرد أن أفكر بها أشعر بالجوع. هل
هذا يجعل مني شخصاً مفتوناً أم مفجوعاً؟

- هذا يجعل منك شخصاً مقبلاً على الحياة. مَنْ يستمتع
بالطعام يستمتع بالدنيا.

- أتفق معك. بالأمس، دخلنا سينما زاوية. هي
مولعة بالأفلام الإيطالية، فعلت أكثر الحركات ابتداءً
وأمسكت يدها في أثناء عرض الفيلم، ولكنها وضعت
رأسها على كتفي بمنتهى العفوية، كانت تفوح من شعرها
رائحة الفانيلا، فغمرني شعور لم أشعر به منذ فترة طويلة،
السعادة.

- هذا تقدمٌ عظيم يا عيسى.

- أتظن ذلك؟

- بل أنا واثق، لارا تأثير عظيم عليك.

- لأن لديها هذا السحر النادر. إنها تعبر عن نفسها
بسلاسة، تربت على كتفي حين تود أن نتعاطف معي،
وتعانقني إذا تلمست حزني، وتصفق لي وتلمع عيناها فخراً
إذا أصبت في شيء. لا تردد في النطق بما يدور في خلدتها
أو ما يغمر قلبها، وكأنها لا تبالي برد فعل أي شخص تجاه
صراحتها ووضوحها. أعني، كيف يكون المرء شفافاً
كالزجاج ولا يخاف من أن يكسر بسهولة؟

- هكذا تكون حال كل مَنْ يتصل بمشاعره ويفهم ذاته
واحتمالاته. الوضوح مع النفس يجعلك تصل إلى مرحلة
عليا من الصفاء النفسي.

- لم أتعامل في حياتي مع شخص يملك هذا القدر من
النضوج العاطفي والتصالح النفسي. أليست باهرة؟



- هي كذلك. التعامل مع شخصية سوية مثل لارا له القدرة على تحسين نفسية المرء.

- نعم ولكني... لن أكذب عليك، في بعض الأحيان أعود إلى البيت وأسمع أخباراً سيئة فأشعر بالذنب، وأقول لنفسي الناس يعانون ويتعذبون وأنت تأكل الفشار بالكراميل في السينما!

- معاناة الناس ليست ذنبك.

- أعلم. وعلى الرغم من ذلك، لا أنجح في التخلص من هذا الضيق، وكأنني مسؤول عما يحدث للجميع.

- وهل نفسك تستحق منك ذلك؟

- ماذا تعني؟

- الحياة قاسية على الجميع. الظروف لن تكون دائماً في خدمتك، ستجد الكثير من المطبات في طريقك وستجد أشخاصاً مؤذنين سيقسون عليك وعلى من تحبهم بدون مبرر. والآن، هل في رأيك أن رد الفعل المناسب هو أن تقسو على نفسك، وتجلد ذاتك وتحملها فوق طاقتها حتى تنفذ قواك، أم أن تحنو على نفسك وتعاضدها حتى تتمكن من النهوض وإيجاد حل عملي لمشكلاتك ومشكلات من حولك؟

- الخيار الثاني بلا شك.

- إذن، اجعل من رضا نفسك مهمتك. ما دمت لا تصد من يحتاج إلى مساعدتك أو تتعاس عن معاونة من تقدر

على معاونته، فلا داعي لتأنيب الضمير. اختر نفسك.
- في بعض الأحيان أجد في اختيار نفسي شيئاً من
الأنانية.

- وأنا أجد في تدمير نفسك شيئاً من الغباء. الأنانية هي
أن تعيش لنفسك فقط، ولكن الذكاء هو أن تحافظ على
نفسك حتى تتمكن من معاونة الآخرين. هذه مهمتك حتى
اللقاء المقبل، أعد قائمة بالأشياء التي تُسعد عيسى.
- مثل ماذا؟

- هذا ما يجب أن تحددته أنت بمفردك، فما من شخص
أكثر بؤساً من الذي يجهل ما يسعده.

اتصلت بي بتول في أثناء دخولي إلى عمارتنا بعدما
انتهيت من جلستي مع ماجد، وأخبرتني ألا أبقى في المنزل
بمفردتي، لأن أبي يعاني نوبة من نوبات غضبه العارمة،
وأنه على الأغلب سيصب سخطه عليّ.

لم تخبرني سبب نوبته هذه المرة، ولكنه صار طقساً
معتاداً كلما أتى أبي إلى بيتنا.

جلست على رصيف عمارتنا لأخطط إلى أين سأتجه،
فاتصلت بلارا.

أخبرتني أنها انتهت من تمرين الجباز، وأنها على وشك
السباحة كما تفعل بعد كل تمرين.

اتفقت معها على أن أقابلها هناك، ثم اتصلت بمايكل

لألقاه أيضًا في النادي ويتناول ثلاثتنا العشاء معًا، فأنا لم أراه منذ بضعة أيام ولا أريده أن يعتقد أنني انشغلت بلارا ونسيته تمامًا.

هممت أن أنهض لأتجه إلى النادي، ولكن قابلني يجو في طريق خروجه من العمارة قائلاً:

- ماذا تفعل على الرصيف يا أسد؟

- كنت في طريقي إلى النادي، هل كنت مع أبي؟

- لا، كنت سأتجه لأشتري حلواه المفضلة ثم أزوره. لماذا ستذهب إلى النادي وتترك أباك؟ سيعود إلى دبي بعد يومين.

- إنها طريقتنا في الهرب من نوبات غضبه.

- آه. في الواقع، أنتم عائلة شديدة النكد يا عيسى.

- صدقت يا يجو، ثم يتساءلون ما الذي أصابني بالاكئاب!

- حسناً، فلنهرب معاً من هذه العائلة المشؤومة، فقد سمعت صياح أبيك وأنا أنزل السلم. دعني أوصلك إلى النادي، فهذه الحرارة تجبر المرء على عدم الخروج من المسبح.

- ولكنني نسيت ثوب سباحتي في البيت.

- لا بأس، معي ثوب إضافي في السيارة.

حين قال يجو إن معه ثوب سباحة إضافيًّا، لم أتخيل أنه سيكون «Speedo» برتقاليًّا فاقعًا يأخذ قصة السروال الداخلي الحريمي.

لم أجرؤ حتى على ارتدائه وأنا في غرفة تغيير الملابس. كان يجو في الكابينة المجاورة لي يغير ثيابه، ثم سمعته يطرق على بابي ويقول:

- انتهيت؟

خرجت قائلاً:

- لا، بالتأكيد لن ألبس هذا.

كان يلبس ثوب سباحة مطابقاً للذي أعطاه لي، ولكن لونه وردي فاقع.

لطالما كانت أثوابه مثاراً للسخرية بيننا، فقد كانت أوروبية زيادة على اللازم، ولكن والله إذا رأي أبي أمسك هذا الثوب في يدي لقتلني غرقاً.

أعطيته ثوبه، فقال ضاحكاً:

- لا يعجبك اللون؟

- والله لو نزلت الماء وسط الشباب الذين يسبحون وأنا أرتدي هذا، لتحرشوا بي.

- لماذا نتعامل مع بدنك بكل هذا الخزي؟

- أنا لا أشعر بالخزي من جسدي.

- لماذا إذن تقصر شعرك كلها عاد أبوك من السفر؟

- أتجنب المشكلات معه.

- هذا جن يا عيسى. كيف تكتب منشورات عن حقوق المرأة وحريتها وأنت عاجز حتى عن ارتداء ما يرضيك أو تصفيف شعرك كما يعجبك؟ ينقصك الكثير من الانفتاح قبل أن تبدأ بالحديث عنه.

- لا شك أنني سأتعلم أكثر مع الوقت.

- حتى يحدث ذلك، دع انفتاح المرأة للمرأة، فهن ثورات مزعجات يعرفن أخذ حقوقهن من فم السبع، أما نحن، فنحن مغلوبون على أمرنا ومظلومون أكثر منهم. لا نجد من يطالب بحقوقنا، وإذا اشتكى أحدنا وقال إن المجتمع يضغط عليه ويظلمه، نعتوه بـ«المخنث»!

- نعم، لا يعترف المجتمع بصراعاتنا النفسية.

- إذن، كفى خضوعاً له! إن كان ثوب السباحة لا يعجبك فلا بأس، لا ترتده. أما إذا كنت ستتركه لأنك تخشى من تعليقات الناس على مظهرك، فاذهب إلى الطبيب واعمل اختبار ذكورة، فإن خاف الرجل من نظرة المجتمع، ماذا سترك للنساء!؟

أخذ حقيبته وخرج وتركني وسط أفكاري.

وضعت ثوب السباحة فوق حقوي ونظرت في المرآة وأنا أتخيل منظري وأنا لا أرتدي شيئاً غيره.

فُتح باب غرفة تغيير الملابس ودخل شابان نافرا العضلات من أعضاء فريق كرة السلة.

لمحا ثوب السباحة في يدي فضحكا، وقالوا بعض
التعليقات الجنسية البذيئة عني بصوت حرصا على أن يصل
إليّ.

ألقيت ثوب السباحة على جنب في لحظتها. إنها معركة لا
تستحق الخوض.

* * *

فضّلت الجلوس على الشازلونج وسماع الأغاني والعمل على
قائمة الأشياء التي تسعدني كما طلب ماجد مني، بينما استمر
بهيج في السباحة.

كلما غاص تحت الماء، سمعت تعليقات السباحين من
حوله.

انتقدوا الوشوم العجيبة التي تفترش ظهره كله، وسخروا
من لون ثوب سباحته وقصته، واستهزأوا بالخواتم الفضية
التي تحلي أصابعه.

يسخرون ويتمزحون وفور أن يخرج رأسه من الماء
يصمتون.

لا أدري، هل يصمتون خوفاً من عضلات يجو النافرة
التي تجعل أي شخص يفكر مرتين قبل أن يقرر الدخول
معه في عراق، أم يصمتون لأنهم يدركون سخافة وتفاهة
تعليقاتهم!؟

فرغ يجو من السباحة وجفف بدنه، ثم جلس بجواري
على الشازلونج مع دخول مايكل ولارا.

عرّفتُ لارا على يجو فتبادلا التحية، وتجاذبا أطراف الحديث.

استغل مايكل ذلك وهمس إليّ:

- لم تخبرني أن زوج أختك معك.

- قابلته مصادفة، لماذا تنزعج كلها رأيتَه؟

- لا أحب صحبته.

- حسناً، سنستأذن منه ونرحل بعدما تفرغ لارا من السباحة.

ضحكت لارا وقالت له:

- أنت خفيف الظل يا أونكل.

- أونكل!

كررها يجو مصدوماً:

- هل أسير أمامك بعكازين؟

- المعذرة، إنها عادة احترام الكبير.

- لست كبيراً يا حلوتي. أنا شاب أكثر منكم جميعاً.

تضاحكا ثم اعتذرت لارا، كي تتجه إلى غرفة تغيير الملابس.

بمجرد أن ابتعدت قال يجو:

- احترام الكبير؟! حمقاء! ولكن استدارة مؤخرتها تشفع

لها غيابها.

علقت قائلاً:

- ماذا تقول يجو!

- ما خطبك؟

- لم هذا التعليق السخيف؟ أتحرش لفظياً بفتاة عمرها نصف عمرك؟

- إن كنت أهمس إلى نفسي فهذا لا يعد تحرشاً، ثم ما دخلك أنت؟

- ما دخلي؟ أنت زوج أختي، أتغازل غيرها أمامي؟

- ليس هذا لب الموضوع، أنت معجب بها؟ أهذه هي الفتاة التي ذهبتَ معها في موعد غرامي؟

- حتى وإن لم أكن معجباً بها، أيجوز أن تتحمل إلى أجساد الفتيات؟

ضحك يجو وسحب سرواله وقميصه من حقيبته ثم ارتداهما وهو يقول:

- لقد أحسنت صابرين تربيتك. أنت فتى طيب يا عيسى.

ارتدى حذاءه وهو يقول بابتسامته الودود نفسها:

- سأذهب لشراء الشطائر، ماذا ستأكل؟

- لست جائعاً.

- دعك من العبوس، لم أكن أعرف أنها تخصك يا أسد!

سأحضر لكما شطائر شيش طاووق ومياهاً غازية، أم أنك

لا تحب الصودا يا مايكل؟ أفضّل الموز باللبن؟

هزّ مايكل رأسه نفيًا دون تعليق، ثم ضربني يوجو على
كتفي واتجه إلى الكافيتريا.

همس مايكل:

- بغيض!

- تصرفاته متصاوية بعض الشيء ولكنه طيب القلب. هو
مدلل دلال الطفل وحيد والديه، ولكنه حنون وصحبه
طيبة.

- ليس من الصحي أن تمضي أغلب وقتك مع شخص
عمره ضعف عمرك يا عيسى، حتى لو كان زوج أختك.

- لماذا؟

- هكذا، لم تجادلني؟

كنت سأبرر موقفي ثم أدع لمايكل مساحة للتعبير عن
وجهة نظره، ولكن لارا اقتربت منا وتركت حقيبتها
بجوارنا وسألتنا:

- ألن تسبحا معي؟

أجابها مايكل:

- لديّ رهاب من حمام السباحة.

- هل تود أن تحاول التخلص منه؟ سنسبح معًا ونحرص
على ألا تغرق.

- رهابي ليس من الغرق بل من حمام السباحة نفسه.

- ما الذي يزجك بالتحديد؟ يمكننا أن...

- قلتُ لا يا لارا!

استعجبنا صياح مايكل. كان متوترًا وتشوب صوته نبرة
اختناق.

زفر والتقط حقيبة تمرينه من على الأرض قائلاً:

- آسف يا رفاق، مررت بيوم سخيف.

قالت لارا:

- لا بأس يا مايكل. هل تود الحديث معنا عما يزعجك؟

- ليس الآن، أنا في حاجة إلى النوم، سأقابلكما غداً.

صاحفني وكرر اعتذاره، وأصر على أن يرحل بمفرده، وأن
ترك له مساحة للخصوصية.

سألني لارا وهي تضع غطاء السباحة على رأسها:

- ألدك فكرة عما يصيب مايكل بالكآبة دائماً؟ كثيراً ما

أكون جالسة معه وفجأة يتمكن منه الكمد وينسحب.

- إنه على هذا الوضع منذ أن توفي والده. لقد أتاه خبر

وفاته في أثناء تمرين السباحة، ربما لهذا صار لديه رهاب

من المكان.

- ربما! على أي حال، سنمهله ساعة يختلي فيها بنفسه ثم

نتصل لنطمئن عليه.

أمسكت يديها الناعمتين الصغيرتين وقلت:

- أحب مقدرتكِ على الاعتناء بالآخرين.

توردت وجنتاها وابتسمت نجلاً وهي تربت على يدي،

ثم قالت:

- ألن تسبح معي؟

- نسيت ثوب سباحتي، أكلني روتينك وسأنتظرك هنا أنا
وأونكل يجو.

ضحكت ثم قالت:

- لن أتأخر.

قفزت في الماء وأخذت تسبح بنشاطها المعهود.

أعدت السماعات إلى أذني، فانبعثت منها كلمات أغنية
«ليلي»، وانصب انتباهي على قائمة الأشياء التي تسعدني:
رائحة لارا، ابتسامة لارا، غمازتا لارا، طريقة نطق لارا
لحرف السين، ملمس يد لارا، التفكير في تقبيل لارا.

لو عرضت تلك القائمة على ماجد سيظن أنني مراهق
مبتذل يحب أفلام «توايلايت».

احتفظت بتلك القائمة لنفسي، وقررت أن أصنع واحدة
أخرى يمكن عرضها على ماجد، ولكني لمحت لارا تقترب
مني على عجلة.

نزعت السماعات من أذني، ورأيتها تسحب الفوطة
وتلف بها بدنها كله، كأنها تكفن نفسها وعلى وجهها
ملاح ارتباك وخوف.

- ماذا حدث؟

- لا شيء، المياه باردة.

- المياه باردة في أغسطس؟ ماذا أصابك يا لارا؟ أهنأك
شيء يؤلمك؟

نظرت إلى حمام السباحة، وجدت الشابين السخيفين
الذين دخلا عليّ غرفة تغيير الملابس وسخرا من ثوب
سباحتي.

كانا ينظران صوبي أنا ولارا، ويضحكان ضحكات
مقرفة.

- هل لمساك؟

- لم يحدث شيء يا عيسى. دعنا نرحل في هدوء، أمي
تنتظرنني في البيت.

مالت لتنتشل ملابسها، ولكنني رأيت لمعة الدموع تجتاح
عينها.

هذان الحقيران تحرشا بها.

اتجهت صوبهما وصحت:

- اخرجاني من الماء.

- ولم لا تنزل أنت؟ أم أنك نسيت لباس أمك!

حملت أقرب شازلونج وألقيته صوبهما، فصرخت لارا.

لم يصبهما الكرسي، فخرجا من الماء والغضب يسيطر
عليهما.

بداية المشاجرة كانت في صالحني، ألقيتهما بأقرب مقعد
بلاستيكي فأصيب أولهما، وتمكنت من لكم ثانيهما.

كانت خطتي أن أضرب كل واحد منهما على حدة كما
في أفلام الأكشن المبتدلة، ولكنني نجحت في هذا لوضع
ثوانٍ ثم تمكنا من محاصرتي، أحدهما يطوق ذراعي من
الخلف والآخر يلكمني.

سدد لكمة إلى عيني اليسرى ثم اليمنى، فشعرت بالدماء
تسيل من حاجبي.

تشتت رؤيتي وشعرت بالدوار، ولكنني لم أفقد وعي
ولا قدرتي على السباب. لا شك أنني تغلبت عليهما في
مهارة الشتم.

معظم الأعضاء الموجودين في منطقة حمام السباحة كانوا
في سن المعاش، فلم يتدخلوا بدنياً. اكتفوا بالصياح ونهر
الشابين عن ضربني، بينما سمعت صرخ لا را ثم لمحتها تحاول
دفعهما بعيداً عني، وتطلب من أحد الأعضاء استدعاء
أفراد أمن النادي.

بعد تلقي الكثير من اللكمات والركلات توقفا فجأة عن
ضربي.

هل أشفقا عليّ إلى هذا الحد؟

سمعت صوت سقوط في الماء، ثم تركني الشاب الذي
يطوق ذراعي.

تمكنت من مسح الدماء من على عيني والرؤية بوضوح،
كان يجو هو منقذي البطل.

أوسع الشاب الأول ضرباً ثم حمله وألقاه في حمام

السباحة، بينما تغلب على الثاني وطرحه على الأرض،
وسدد إليه لكمة ملاكم محترف.

الآن، تأكدت من أن عضلاته ليست زينة، وأن ثوب
سباحته الوردية لا ينقصه قوة ومهابة.

ركضت لارا صوبي وأخذت تتفقد وجهي وتربت على
ظهري وتناولني الماء، ولكنها عجزت عن إيقاف نزيف
حاجبي.

نعم، كنت نخوراً بعناقها لي وخوفها عليّ وبأنني اتخذت
موقفاً.

حتى لو كان الحقيران أوسعاني ضرباً، إلا أنني لم أكرر
ما فعلته حين صفع أحد زملائنا مؤخرة فرح.

اليوم، أخذت موقفاً وتصديت لمتحرشين ضاريين.
اليوم، كنت رجلاً.

عيسى

(قبل الجريمة يوم)

حصلت على وسام النصر، ست غرز في حاجبي الأيسر وأربع في الأيمن.

اللعة على الخواتم الفضية التي تشج الوجه عندما نتلقى لكمة من يد مرتديها!

كنت ما زلت تحت تأثير المخدر الموضعي، ثم أخذت المضاد الحيوي وبعض الأدوية الأخرى التي ابتاعها لي يجو بأمر من الطبيب.

شعرت بالدوار وبالفخر في اللحظة نفسها، فقد رأيت ابتسامة لارا لي.

نظراتها إليّ بعد المشاجرة، وهلعتها عليّ وهي تتجه معي ويجو إلى المشفى المجاور للنادي ثم إعطاؤها الدواء لي، جعلتني أدرك أن الأمر يستحق عشر غرز، فأنا لم أشعر يوماً بهذا القدر من الثقة في النفس.

لطالما تجنبت المشاجرات البدنية.

كانت أمي ترهيني وتقول إن الصبية يسرون بمطاوٍ قد يمزقون بها وجهي الوسيم أو يطعنونني فيصيبون قلبي فأموت على الفور، ثم تجعلني أقسم لها كل يوم إنني لن أتورط في أي شجار عنيف.

كنت ابن أمي الطيب. لم أتورط في معركة من أي نوع، ولكنني لو كنت أعرف أن الشجار من أجل لارا سيجعلها تمسك يدي وتتحسس شعري وتغني ببطولتي - ولا أعرف من أين أتت بترهات أنني أوسعت الشابين ضرباً وتغلبت عليهما بمفردي - لكنت تدربت على الشجار منذ سنوات طويلة.

خرجنا من عند الطيب، وأصر يجو على أن يوصل لارا إلى بيتها.

فتح لها باب السيارة الخلفي، وأشار إليها بالجلوس كسيد نبيل.

اقتربت لأجلس على المقعد المجاور ليجو، فأشار إليّ برأسه أن أجلس بجوارها ثم غمزني.

شعرت بأن الأمر مريب، وسأبدو سخيفاً إن تركت المقعد الأمامي وجلست في الخلف.

هزرت رأسي نفيًا، فقال يجو:

- لا يجوز أن تبقى جالساً بزاوية ٩٠ درجة يا عيسى. يجب أن تنام على الأريكة حتى لا تصاب بدوار الحركة وتفتح غرز جرحك.

- ما العلاقة بين دوار الحركة وغرزي؟!!

- أستعجب كيف تخصصت في المواد العلمية وأنت حمار إلى هذه الدرجة! هل سيزعجك يا لارا لو تسطح عيسى على الأريكة بجوارك؟

- بالطبع لا.

فتحت لي الباب، فجلست بجوارها، ثم أغلق ييجو الباب
وجلس على مقعد السائق.

وجدت لارا تجذب رأسي على مهل وتضعه على نخبها ثم
تتحسس شعري.

الآن فهمت مقصد ييجو وما العلاقة بين الأريكة الخلفية
وغرزي.

البديء اللعين! أحبه!

في الواقع، لم تكن عندي نية لفعل أي شيء سوى
الاستمتاع بلحظة الحنان الأمومي هذه.

كانت أوصالي كلها مخدرة وقد تمكنت مني هلاوس
المضاد الحيوي، ولم أعد أشعر برأسي إلى درجة أنه بدا لي
كما البالون، يطير بعيداً في الهواء.

كان لحركة السيارة تأثير هدهدة الأم لرضيعها في المهد،
ومع مداعبة لارا لشعري وفروة رأسي، نمت.

- عيسى! عيسى!

فتحت عيني لأجد لارا تبسم لي، وييجو يضحك ضحكة
ساخرة.

استيقظت ورأسي يؤلمني بشدة، وما زال الخدر مسيطراً
على أطرافي.

نهضت متظاهراً بأني كنت مستيقظاً من الأصل،
فقلت:

- نعم، نعم لقد وصلنا.

علقت لارا وهي تضحك:

- نعم. أود أن أشكركم وأعتذر إليكم مجدداً، لقد أوقعتكما
في مشكلة و...

- كلاً! لا! على الإطلاق! كانا في حاجة إلى التأديب. لا
ذنب لك.

- كانا في حاجة إلى التأديب وأنت أدبتهما بالفعل يا
عيسى. سأراك غداً؟

- بالطبع.

- حسناً، إلى اللقاء.

التفتت إلى يجو قائلة:

- شكراً يا يجو.

فتحت باب السيارة، بينما أجابها يجو:

- العفو يا حلوة.

همس إليّ:

- لا تكن متنطعاً! انزل وأوصلها حتى باب العمارة.

- نعم، حسناً.

نزلت خلفها وسرت معها حتى دخلنا العمارة، وكلانا

يبتسم للآخر بإحراج ساذج.

ضغطت على زر المصعد فكان ينزل من الدور الثاني عشر.

بقينا نتبادل النظرات والابتسامات البلهاء حتى قالت:
- حسناً، لا أعرف كيف يمكنني أن أعبر عما أشعر به الآن! أنا فخور بك، أنا ممتنة لك، أنا سعيدة لأنك كنت معي اليوم، لأنني لو كنت بمفردي لربما بقي الأمر يورقني لأيام، أو ربما أصابني الصدمة وبقيت في حالة إنكار. لم يتحرش بي أحد من قبل، كنت أظن الأمر يحدث بالمواصلات العامة فحسب. ولكن، على أي حال، أنا سعيدة لأنك كنت موجوداً وأنت لم تلهني بل ودافعت عني و...
- أنا أحبك يا لارا.

اندفعت الكلمات من فمي دون تفكير. أظنه مفعول المخدر الموضعي والمضاد الحيوي، لقد بسطا سلطانهما على عقلي وحررا قلبي.

ابتسمت ابتسامة واسعة، ومالت إليّ هامسة:

- أتحبني؟

- نعم، أحبك جداً.

اقتربت منها أكثر حتى صرت أشم رائحة ملمع شفيتها بوضوح.

كان برائحة التوت البري، الرائحة الأقرب إلى قلبي.

هل كانت شفتاها يانعتين وممتلئتين ولا معتين هكذا طوال الوقت؟

انحيت حتى أكون في طولها واقتربت منها، ثم تذكرت تعاليم بتول لي فيما يتعلق بالتعامل مع الجنس الآخر. همست إلى لارا قبل أن أقبل على أي فعل أحمق. هل يمكن أن أقبلك؟

ضحكت ضحكة خافتة ثم هزت رأسها بالموافقة، وما كادت شفاها تلتقي حتى رنَّ المصعد رننه الإلكتروني الحادة السخيفة، فانتفضت لارا وارتبكت وتراجعت إلى الخلف متخفية عن الفكرة تمامًا.

فُتح باب المصعد وخرجت منه سيدة مسنة ألقَت التحية على لارا، ونظرت إليَّ بارتياح.

فتحت السيدة باب المصعد وانتظرت حتى دخلت لارا، ولم ترحل إلى أن اضطرت لارا إلى أن تلوح لي بالوداع، وتؤكد أننا سنلتقي غدًا، ثم أغلقت باب المصعد.

صعد المصعد وما زالت السيدة تنتظر خروجي من العمارة، ففعلتُ.

دست يدي في جيبي، وسرت في الشارع أغني:

ساموراي رحال

وقالولي محال

دي الدنيا في حال

وحببتي في حال

وصلت إلى سيارة يجو، ثم جلست في المقعد المجاور له.
تأمل الابتسامة البهاء المرسومة على وجهي، ثم قال وهو
يغمزني:

- ها؟

- ماذا؟

- قبلتها؟

- كلاً.

- أتخاف أن أحسدك يا أبله؟

- إنني أصدقك القول، لم أقبلها.

- أي خيبة هذه؟ أتركك تجلس بجوارها فتنام كالرضيع،
ثم أدفعك إلى الاختلاء بها في العمارة ولا تقبلها؟ هل
لديك مشكلة عضوية يا أسد؟

ضحكت حتى شعرت بالألم في عظامي التي ركلها
المتحرشان اللعينان عظمة عظمة.

- لا أعاني أي مشكلات يا يجو، أنا أحبها.

- تحبها؟ هذه ليست مشكلة، بل مصيبة سوداء على
دماغك، ضاع الولد!

أدار المحرك وأكمل طريقه في الاتجاه إلى بيتنا وهو يقول:

- يجب أن تغير ثيابك عندي أولاً، إذا دخلت على أمك

يبقع الدم وملابسك الممزقة هذه، ستفقد عقلها.

* * *

في أثناء صعود المصعد إلى شقة مريم ويجو، سمعت والدي يصيح مجددًا، ولكن تلك المرة كانت أمي ترد عليه بالصوت العالي نفسه.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها صوتًا لأمي.

دخلنا الشقة. كانت الأنوار كلها مطفأة ولا صوت لمريم، فحمنت أنها إما في شقتنا تصلح بين أمي وأبي، وإما عند صديقتها سما.

وددت أن أسأل يجو عنها، ولكنني دخلت الحمام القريب من غرفة الاستوديو، لأقضي حاجتي ثم نظرت إلى انعكاسي في المرآة.

أكانت لارا مستعدة لتقبيل هذه السحنة؟

كنت في حالة يرثى لها، عيني اليسرى شبه مغلقة، واليمنى حمراء، وكل شعرة من شعري في اتجاه، وشفتي مشقوقتان، ومنظر الغرز في حاجبي مقزز، وثيابي لا حول لها ولا قوة.

لا شك أنها تحبني بالفعل.

خرجت من الحمام فوجدت يجو في غرفة الاستوديو يناديني، وقد ترك لي ثيابًا نظيفة على طاولة تتوسطها مبخرة أنيقة يحترق بداخلها بخور له رائحة عجيبة.

خلعت حذائي ثم اتجهت للجلوس معه على المقعد المقابل للطاولة التي يضع عليها معدات البلاي ستيشن وبعض

المقرمشات.

كان ظهره لي وهو منشغل بتوصيل الأسلاك ببعضها،
ويُخرج من فمه دخان ثقيل وفي يده الجعة.

أخذ ذراعَيّ البلاي ستيشن وأعطاني واحدة وهو يقول:
- فلنلعب حتى تفرغ بطارية أليك ويتوقف عن الصياح،
ثم تعود إلى شقتك. يمكن أن تبیت هنا إذا أردت.

حين واجهني في طريقه للجلوس على المقعد المجاور لي،
انتبهت إلى أنه يدخن سيجارة حشيش، فنظرت إليه
مستعجباً، ولكنني لم أنطق بأي تعليق.

انتبه لنظراتي فقال:

- لك عينا مريم وبلاهة نظراتهما.

- لم أكن أعلم أنك تدخن الحشيش.

- ما زلتُ غير معتاد عدم قانونية الحشيش في مصر،
الأمر مقنن في كندا.

- نعم، أعرف.

- هل يزجك الأمر؟

- لا، هذا بيتك. أنت حر على أي حال.

- حبيبي التنويري الصغير.

ضحك ساخرًا:

- هل تود أن تجرب؟

- كلاً!

- ولا حتى الجمعة؟

- لا.

سعلت من رائحة البخور المقيتة وتشوشت رؤيتي قليلاً.
ما زلت أشعر بالدوار والتعب، ولكن تفاصيل لارا
كانت توظف حواسي، إلى درجة أن يجوسد هدفاً في
مرمى فريقتي ولم أبال.

نظر إليّ، ثم ضحك قائلاً:

- بلاهة الشباب!

- ماذا! ألا تعرف حلاوة الحب؟

- بل أعرف مرارة الزواج. يا حبيبي، أنت واهم.
أي حب هذا الذي تشعر به بسبب تسكعك مع فتاة
لأسبوعين!

- أنت ومريم تزوجتما سريعاً وبعد خِطبة قصيرة.

- ولكن أختك تحبني منذ أن كانت تليذة بصفائري.

- ألم تبادلها المشاعر نفسها؟

- لا تكن أحمق يا عيسى.

- هل الحب حماقة؟

أوقف اللعبة والتفت إليّ قائلاً:

- ينقصك الكثير من الخبرة يا فتى. اسمع، أمي كانت

تصارع السرطان. رفضت العلاج الكيماوي والجراحة،
فعرض عليها الطبيب تجربة «Placebo»، قرص وهمي
تأخذه كل يوم. الطبيب يقنعها أنه علاج سحري فعال،
ولكنه في الحقيقة ليس سوى فيتامين. إلا أن نظرية
الأطباء تفترض أن عقل المريض لو اقتنع بأنه يأخذ
علاجاً شافياً بحق، ستقوى مناعته وتحسن حالته. نتيجة
التجربة أنني دفنت أمي بعد شهر من المواظبة على هذا
القرص الوهمي. هذا هو الحب، قرص وهمي لا فائدة
منه ومع ذلك نبتلعه بكامل إرادتنا حتى نتحمل نكد النساء
وسخافة الزواج ومتطلبات الأطفال.

- الزواج سخيف؟

- ألم تسمع صياح والديك؟

- هذا لأنهما من جيل قديم، جيلنا أكثر ذكاءً وتفتحاً.

- إن وضعت قمامتك في كيس رقمي ذكي، ستظل قمامة.

- أنت تبالغ! كيف لاجتماع رجل وامرأة متحابين
ومتفاهمين أن يكون بهذا السوء؟

ضحك بقوة حتى كادت تسقط سيجارة الحشيش من بين
شفتيه.

ارتشف ما بقي من الجعة، ثم قال:

- أي شيء تشترك فيه مع امرأة هو شيء سخيف يدعو
للنكد والبؤس، وسيبوء بالفشل لا محالة.

- لم تكره النساء إلى هذا الحد يا ييجو؟

- هأنذا مجدداً تنطلق مدافعاً عن النساء ولا تبالي ببني جنسك.

- لا أدافع عنهن. أود أن أستفهم منك سبب مقتك للنساء فحسب. أعني، لماذا تزوجت مريم إن كنت تكره الزواج؟

- لأن الزواج ضروري لمن هم في سني، مثله مثل التعليم المدرسي والجامعي والعمل. إذا اقترب عمر الرجل من الأربعين دون زواج، سيبحث له المجتمع عن مسمى حقير؛ هذا الوسيم ابن الأثرياء لم يتزوج لأنه بخيل، لأنه ضعيف جنسياً، لأنه مثلي.

- منذ متى وأنت تبالي بمسميات المجتمع؟

ضحك وأحمد سيجارته، ثم نهض لأخذ زجاجة جعة أخرى وهو يسب ويلعن في الطريق.

كان يلعن أباه ووالدته، ثم أخذ يشتم شخصاً يدعى «فريدريك»، وعاد للجلوس بجواري، فسألته:

- من فريدريك؟

- شخص يشبهك كثيراً، وكأنك توأمه، ولكنه يكبرك ببضع سنوات، كان عمره عشرين عاماً. اللعين ابن العاهرة.

لم أعد أحتمل رائحة البخور فسعلت، ثم قلت:

- أي نوع من البخور هذا؟ رائحته بغيضة.

- ليس بخوراً. إنه حشيش، رائحته تهدئ أعصابي قبل النوم.

- حشيش في البخور؟

هز ييجو رأسه وضحك بقوة فانتقلت إليّ عدوى ضحكته،
وأخذت أقهقه مثله حتى دمعت عيناى.

ضربني على نخذي، وقال:

- لارا هذه محظوظة، أوقعت فتى عبقرياً وحساساً
ووسيماً مثلك في شباكها.

- نعم، محظوظة لأنها تحب بأسأ لا يجيد العراك.

ضحكت ثانية فقال:

- ولكنى لا أفهم سبب عدم انجذابك إليها جنسياً.

- أخبرني يا ييجو، بما أنك خبير، هل الجنس بالروعة التي

يظنها الجميع؟

- ما زلت بكراً، يا ابن أمك؟

- لا تسخر منى، فقط أجبنى.

- حسناً، الجنس عظيم إذا مارسته مع الشخص

الصحيح. لماذا لم تُقبّل لارا؟ ألا تعجبك؟

- المصعد.

- أي مصعد؟ صارحني، هل أثرت عليك مسلسلات

نتفليكس يا أسد، وصرت مثلياً؟ ألهذا تقضي يومك كله

مع مايكل؟

- معاذ الله.

ضحكنا مجدداً، فتجرع ما بقي من الجعة، وألقاها بعيداً،

وقال مبتسماً:

- لم لا ثبت لي؟

لا أدري ما الذي صار بالضبط ولكن فجأة، وجدت
يجو يقترب مني أكثر مما ينبغي ويمسك وجهي بقوة
ويقرب فمه من فمي.

حاول يجو تقبيلي!

لا أعرف إن كان يفعل هذا حقاً، أم أنني وقعت تحت
تأثير الحشيش المحترق في المبخرة ودخان سجائره المحشوة
الذي استنشقتة، أم هذا من صنع هذيان المخدر والمضاد
الحيوي وفرط الضرب؟

انتفضت قبل أن يُقبلي وحاولت دفعه، ولكنه كان
متشبثاً بي بضراوة، فصرخت فيه وأرجعت ظهري في
المقعد قدر المستطاع، حتى انكسر الكرسي وانقلبت على
ظهري وهو فوقى.

تفاجأ من سقوطنا، فتمكنت من التلمص منه والهروب
نحو باب الغرفة التي لا أعلم متى أوصدها بالمفتاح بعد
دخولي.

جذبني من ذراعي وهو يقول:

- عيسى! انتظر، انتظر.

انتشل المفتاح من الباب ووضعه في جيب سرواله.

دفعته بكل قوتي وأنا أصبح فيه:

- هل فقدت عقلك يا رجل؟

- آسف، آسف. فقط أمهلني حتى أشرح لك.

- تشرح ماذا؟ إنك كنت تريد أن... ماذا كنت تريد؟
أتظن أنني...

- لم أكن أقصد. إنه مفعول الحشيش والخمر، فقط انتظر،
لا تخرج من الغرفة قبل أن تفهم. لا أريد أن أوذيك
أو أجبرك على شيء، لن أُكرهك على أي شيء. يا إلهي،
التاريخ يعيد نفسه!

- أي تاريخ؟! أعطني المفتاح! أخرجني من هذه الغرفة!

- فقط اسمعني، أنا...

- أنت ماذا؟ مثلي؟

- حسناً، وماذا في ذلك؟ هل تعاني رهاب المثليين وكأننا
في العصور الوسطى؟

- يا رجل أنت تحاول الاعتداء عليّ، لقد حاولت تقبيلي!

- وما العيب في ذلك؟ أنت حاولت تقبيل لارا لأنك
معجب بها، أنا أيضاً معجب بك.

- معجب بي؟ هذه ليست ميولي، أنا لست...

- أنت لا تعرف هذا بعد. أنت تسير على ضبط مصنع
المجتمع لإعداداتك. لن تعلم ميولك علم اليقين حتى تجرب
الأمر. كنت مثلك، أظن أنني أحب الفتيات حتى جربت
الأمر مع صديق أبي، هنا، في نفس الغرفة، واكتشفت
أن هذه هي ميولي وليس ما كنت أوهم نفسي به لمجرد
أن أسعد والدي وآتي له بأحفاد يحفظون اسمه. هذه هي

فطرتي الحقيقية.

- بأبي هراء تنطق!

- أرجوك يا عيسى، لا تكن مثل هؤلاء الهمج. لا تقسُ عليّ، أنت تعجبني. أنا...

- أنت مشير للاشمئزاز، يا بهيج! أنت مريض!

- لماذا قلتَ هذه الكلمة يا عيسى؟ هذه الكلمة تذكرني بأبي وأنا أمقتُ ذكراه. كانت نيتي صافية تجاهك ولكنك أخطأت خطأ فادحاً، يا عيسى.

- أخرجني! قلت لك أخرجني!

حدث الأمر سريعاً.

وقف أمامي وأمسك رأسي ورطمه بالبواب عدة مرات وهو يصيح:

- كنت سأعاملك بلين، ولكني سأريك كيف يتصرف المرضى!

شعرت بالدوار الشديد وتشوشت رؤيتي بعدما رطمني بالبواب، ولكني تمكنت من لكم فكه ودفعه عني.

نزفت شفثاه فمسحهما، وقال:

- أتحب اللعب بخشونة يا أسد؟

جذبني من شعري من الخلف، فتعسر عليّ أن أسدد إليه أي لكمة.

رطم رأسي بالطاولة الخشبية التي يضع فوقها حاسوبه



المحمول، فشعرت بغرز جروحي كلها تفتح والدم يسيل
على عيني، ثم سقط حاسوبه بجواري.

صرخت، ولكن غلبني الدوار وهويت على ركبتَي.

ركل صدري فسقطت على ظهري، وشعرت به يعتليني
ويمسك برسغي ويثبت كفي بركبتيه على الأرض.

سدد إليّ بضع لكلمات متتابعة، فملاً الدم في وفاض من
أنفي.

لم ينقطع صراخي. لسبب ما كنت متيقناً من أن مريم
أو بتول أو جدتي أو أي شخص سيفتح الباب وينقذني.

يستحيل أن يحدث هذا، ليس لي، الشباب ينقذون
الفتيات من الاعتداء، لا يتعرضون هم له!

رطم رأسي بالأرض عدة مرات ثم انتشل حاسوبه
المحمول من جواري وصفعني به بقوة، يمينا ويساراً.

مرة، فالثانية، فالثالثة.

طنّت أذناي حتى انقطع صراخي وخفتت حواسي كلها.

تباطأت أنفاسي، وماجت الأرض من تحتي.

شعرت به ينهض عني، وسمعت صوت سحب بنطاله.

قلبي على بطني دون مقاومة تُذكر، ثم شعرت به يخلع
عني سروالي.

سمعت أنيني الخافت، ثم تخلت عني أعصابي، ولم تعد

تستقبل أي إشارة من إشارات مخي كي تقاوم، حتى



أشفق عقلي لحالي، وقرر أن يتوقف عن العمل.
لم أعد أشعر بأي شيء.
فقدت الوعي تمامًا.

المرحلة الخامسة

الإنكار

١٥

عيسى

(قبل الجريمة يوم)

كان كابوساً سادياً وبغيضاً.

هل هناك شخص سوي يرى كابوساً عن زوج أخته
يهتك عرضه في الشقة التي أثبتت أمه قطعة قطعة؟

كان كابوساً، بالتأكيد.

الفتيات يتعلمن المحافظة على أنفسهن وأن يخبرن أمهاتهن
إذا لمسهن غريب، أما الفتية فلا أحد يخبرهم أن هناك
احتمالية من الأساس أن يتعرضوا للتحرش الجنسي.

فتى ضحية اغتصاب؟ هذا درب من العبث!

كان كابوساً، نعم. مجرد كابوس سخيف جثم على
صدرى كجاثوم كافر لا أكثر.

ولكن، إذا كان مجرد كابوس ووهم وأثر من الآثار
الجانبية للأدوية التي تناولتها، فلماذا أشعر بألم ضارٍ ينهش
بدني كله؟

لماذا أستعيد وعي لأجد نفسي ملقى أرضاً على بطني
بغرفة استوديو يجو في شقة مريم؟



لماذا أسمعُه يغلق سحابه وأشعر بسقوط نسمات مكيف
الهواء الباردة على مؤخرتي العارية؟

سمعت خشخشة مفاتيحه تدور في قفل باب الغرفة.
وددت أن أنهض وأستغل فرصة أن الباب يُفتح كي
أهرب، ولكن ما زال عقلي يعافر لاستعادة مقدرته على
التواصل مع سائر أعضائي.

فتحت عيني لوهلة، كانت رؤيتي ضبابية فلهتُ بهيج
يقف بجواري تفوح منه رائحة الجعة والحشيش والعرق،
فأغلقت عيني مجدداً. لا أتحمل رؤيته.

مال إليّ قائلاً:

- اخرج من بيتي، أيها المريض المقرز!

بصق على وجهي ثم ركمني، فزاد أنيني المكتوم، وخرج
من الغرفة وأغلق الباب خلفه دون أن يوصده بالمفتاح.

استعادت أطرافي حركتها جزئياً فتمكنت من فتح عيني
والرؤية بشكل أفضل، ثم جاهدت بكل ما أملك من قوة
كي أنهض عن الأرض الدبقة المقرزة.

رفعت سروالي الداخلي لأستر عورتي، واستندت إلى
الطاولة للحظة كي أستعيد توازني.

هيات نفسي للخروج من الغرفة، فصرخت عظامي ألماً
مع كل خطوة أخذها صوب الباب، والدم يتقطر من
جروحي العديدة لينزل على صدري.

بعد محاولات كثيرة، تمكنت أخيراً من تمالك أعصابي

لفتح المقبض والخروج.

سمعت الماء ينزل من صنوبر الحمام المجاور للغرفة، وتردد
صدى صوت بهيج وهو يصفر ويغني بمزاج رائق بالداخل.
استندت إلى الحائط فتركت أصابعي عليه بقعاً من
الدماء، حتى وصلت إلى باب الشقة وخرجت.

كنت أستريح على حائط الدرج بعد كل سلمتين أنزلهما
وأنا ألهث كمسن خذلته رثما، حتى وصلت إلى باب
شقتنا.

وقفت عند الباب ولم أسمع صياح والدي المعتاد، انتهيا
من الشجار أو ربما قتل أحدهما الآخر.

لم أدر أين مفاتيحي! لم أكن أملك الطاقة للبحث عنها،
فاضطرت إلى طرق الباب.

بدا زر الجرس شديد الثقل حتى استجاب أخيراً لدعستي
ورنّ.

لا أعلم كم مر من الوقت حتى فتحت لي أمي.

شهقت ولطمت وجنتيها بمجرد أن رأت هيئتي، هل كان
مظهري مفرعاً إلى هذه الدرجة؟

ظلت تنظر إلى نصفي السفلي، فأدركت أنني نسيت
ارتداء بنطالي قبل أن أعود إلى شقتنا، وأعتقد أن سروالي
الداخلي تمزق وتبقع، فأنا أشعر ببقعة دبقة عند مؤخرتي.

وضعت يدها على فمها وظلت على تلك الوضعية دون
كلام، فدخلت الشقة.

أغلقت الباب واعترضت طريقي وهي تسألني بنبرة مرتعشة:

- ماذا حدث؟ من؟

لا أعلم إن كانت حنجرتي ما زالت تعمل، ولكنني عافت حتى سمعت صوتي يقول:

- بهيج... لقد ضربني. أفقدني وعي، أفقدني وعي حتى...

وضعت يدها على فمي.

أمي أحرصتني قبل أن أنطق لها بما حدث لي.

بكت ثم همست إليّ:

- لقد ضربك. نعم، ضربك. سأجعل أباك يكسر رأسه لأنه ضربك، حتى لو كان زوج أختك وفي مقام شقيقك الكبير، لا يحق له أن يضربك. صحيح؟ بهيج ضربك فحسب يا عيسى؟ هذا كل ما حدث. أليس كذلك يا حبيبي؟

لا أعرف إن كان ما نزل من عيني دموعاً أم المزيد من الدم من جرح حاجبي!

أخذت أهرز رأسي ثم أزحت يد أمي عن فمي، فشفتاي تؤلمانني بما يكفي.

همست إليها:

- نعم. ضربني، ضربني. لم يحدث شيء.



- أحسنت يا حبيبي. تعالَ يا صغيري، سأحمك وأخذك
إلى الطبيب لمداواة جراحك.

وضعت يدها على كتفي فامتعضتُ وتراجعت. لا أطيع
لمستها.

كنت سأتجه إلى الحمام لأغسل وجهي من الدماء،
ولكني رأيت أبي يقف أمامي وأمام أمي.

تأمل هيئتي، ثم صاح فيَّ:

- ماذا حدث؟ مع من تشاجرت؟

وقفت أمي بينه وبينني وقالت:

- لا شيء يا منتصر، أنت تعلم الصبية في هذا العمر دائمي
الشجار.

- دائمي الشجار؟ أي شجار هذا الذي يجعل الصبي يفقد
بنطاله ويتمزق لباسه الداخلي؟ هذه ليست هيئة شخص
ضرب فحسب.

جذبني ونظر إليَّ من الخلف ثم صرخ فيَّ:

- ما هذه البقع؟ إياك والنطق بغير الحقيقة يا ابن صابرين؟

ارتعش بدني كله وأجبتُه بصوت واهن:

- حاولت أن أقاومه، رفضت، فقدت وعيي، لقد
ضربني.

- ضربك؟ لو كنت رجلاً حقاً لما طاوعته حتى آخر
نفس فيك.

قالت أمي:

- لم يطاوعه، ألا ترى ما أصاب وجهه؟ لقد أجبره
على...

- كان من الأجدر به أن يتركه يقتله دون أن يطأه.
ولكنني أراه أمامي حياً يُرزق وينتظر مني تصديق أنه فعل
ما بوسعه لحماية نفسه! من الذي فعل هذا بك؟ انطق!

أخذت أخطرف وأكرر الكلمة بشكل هستيري:

- ظلم! ظلم! ظلم!

- أنا ظالم يا فاجرا!

صفعني، ففقدت توازني وسقطت وأنا أصرخ:

- لا تلمسني!

حالت أمي بيننا ورأيت الشرر يتطاير من عيني أبي وهو
يحاول أن يجذبني من شعري ويقول:

- لو لم تكن تطيل شعرك وترتدي تلك القمصان الحريري
وتبكي كالنساء كل ليلة لما ظن الناس أنك لوطي!

- لا تلمسني!

صاحت أمي:

- توقف يا منتصر. ابنك ضحية! لقد اغتصب.

- أي اغتصاب، يا غبية؟ الاغتصاب للحريم وليس
للرجال!

- ابنك قاصر وليس رجلاً. عمره سبعة عشر!

- بل رجل، والرجال لا يُكرهون على الجنس مثلكن يا
ناقصة العقل والدين أنتِ! الرجال يضاجعون ابنك وأنتِ
غافلة عنه. لا تبالين بغير طواجن المسقعة والملوخية!

حاول ضربي مجددًا، ولكن أُمي دفعته بقوتها، فتملصتُ
منه وزحفت على الأرض لأبعد ما يمكن حتى ركضت
إلى غرفة جدتي.

أوصدت الباب عليّ بالقفل الداخلي.

لم يكن هناك أحد بالغرفة سوى كلب بتول نائم في
فراش جدتي كعادته.

انتفض الكلب على صراخ أبي الذي ظل ينعتني بأقذع
الألفاظ التي تنقص من ذكورتى ورجولتى.

حاولت أن أكم أذني ولكني كنت أرتجف بعنف، فلم
أتمكن من منع الصوت عني تمامًا.

سمعته يضرب باب الغرفة التي أختبئ فيها ويحاول فتحه.
اتجهت على الفور إلى دولاب جدتي، وأخرجت ثيابها
المرصوفة في أرضيته، حتى وجدت حقيبتها القديمة
الضخمة.

أخرجت من الحقيبة ألبوم صور زفافها من جدي شرف
الدين وألبوم صورها مع فدائيات السويس وقصاقيص من
الصحف عن بسالتهن وخبر العبور ومجد الرجال وبأس
النساء.

أسفل هذه الذكريات البائدة، وجدت مسدسها وبنديقتها.

أخذت المسدس ثم جلست على طرف الفراش، وأنا
أشعر بألم مرير.

كانت تقابلني صورة زفاف جدّي تجاوزهما صورة أخرى
صغيرة مقصوفة من جريدة، جدي شرف الدين يرتدي
بدلة عسكرية ويحمل رشاشاً، تجاوره جدتي بسرّوال وبلوزة
وغرتها السوداء فوق جبينها وشعرها مقصوص جرسون
وتحمل بندقيتها التي ما زالت تحتفظ بها.

لم ألقَ جدي من قبل، ولكن لسبب ما، شعرت بأنه لو
كان حياً لخلصني من هذه المصيبة.

لم أجد دموعاً أذرفها، رفعت المسدس إلى رأسي
فحسب.

راودني هذا السيناريو كثيراً منذ أن انتحرت فرح وابتلعني
حوت الاكتاب.

تصورت نفسي مراراً وتكراراً، آخذ مسدس جدتي
وأطلق الرصاص على رأسي حتى أتخلص من بؤسي.

بهيج على حق، لست صبارة حتى أتمكن من النجاة من
ضراوة هذه الحياة القاسية. لم يخلق الله لي جلدًا غليظًا
يقيني به من غدر نغزات البشر.

أخذت نفساً عميقاً، وأغمضت عيني.

الأمر بسيط، أضغط على الزناد، أموت.

شعرت بشيء يخربشني وهو يجذب ذراعي التي تحمل
المسدس.

فتحت عيني فوجدت الكلب، يتشبث بذراعي ويجذبها نحوه.

لم يهتم هذا الكلب لوجودي في أي لحظة من قبل، فما له الآن يتسلل إلى حجري ويقف بقامتيه الخلفيتين علي نخذي ثم يلقي برأسه الزغب على صدري، ويستند إلي بقامتيه الأماميتين وكأنه يحضني؟

شعرت بأنفاسه الحارة على عنقي وهو يعانقني.

تركت المسدس.

فشلت في الانتحار تماماً كما فشلت في الفرار من الاكتاب، وتماًماً كما فشلت في حماية نفسي من بهيج. حاوطة الكلب بذراعي وأخذت أبكي وأرتعش وأهتز في حضنه، ودموع القهر تغلبنى، فقبل وجهي الدامي بطريقته.

زوج أختي انتهكني، فأخرستني أمي وعنفي أبي.

لم يرأف والداي لحالي، ولم يحنوا علي.

لم أتلق معاملة إنسانية إلا من كلي.

بتول

(قبل الجريمة يوم)

قُدت السيارة دون وجهة محددة.

كنت هائمة على وجهي، بينما لم نتوقف جدتي عن سب والدي ونعتهما بأسوأ الألفاظ، لأنهما فرطا في حقي، وظلت تؤكد أنه لو كان جدي شرف الدين ما زال حياً لما سمح بهذه المهزلة المشينة.

انتهت ملحمة السباب، ثم وجدتها تضرب كتفي وتقول:
- كيف لم تخبريني من قبل، كنت لأقتص لكِ على الفور؟

- لم أخبر أحداً، أخوأي أنفسهما لا يعلمان. حتى هذه اللحظة، لم أقوَ على جمع شتات نفسي للاعتراف بأنني هزمت شر هزيمة على يد معلم وثقت به واتخذته قدوة. لم يشجعني أحد على الكلام، ولا حتى طبيبي النفسي.

- أتذهبين إلى طبيب؟

- فعلتها وأنا بالإعدادية. كانت لدي نوبات غضب عارمة تليها نوبات حزن عميق. أخذت أدخر من مصروفي لأذهب إلى جلسات الطبيب سراً. لم يعرف والداي بالأمر وقتها.

- هل كان طبيباً جيداً؟

- بل أكثر حماقة وجهلاً من أبي. كانت لديه تلك النظرات الفاحصة وكأنني فأر تجارب. يتأملني من رأسي حتى أنحصي ثم يقول أحاول فك شفرة لغة جسدك. أجريت اختبار الاكتاب، لم يكن اكتابي حاداً فأخبرني أنني حزينة فحسب ثم أخذ يسألني أتصلين يا بتول؟ الفرض بفرضه يا دكتور. هل تقرئين القرآن؟ أتممت حفظه بالعام الماضي يا دكتور. إذن، لم الحزن يا بنتي؟ أتسألني أنا، أيها اللعين؟

- أي طيب هذا!

- كان يقول تلك الجملة المستفزة في أكثر من جلسة: أنت تكبرين الأمور. كيف أكبرها يا سليل البهائم؟ أتراني أضع مشكلاتي وأطعمها السيريلاك مثلاً حتى تكبر وتصير عروسة؟! فتاة في الإعدادية تأتي بمفردها إلى عيادة طبيب نفسي كي يساعدها على تخطي صدمة تحرش معلمها بها وينتشلها من شتاتها، أهذا ما تنتظره منك؟ أن تخبرها أنها تبالغ وتلومها على أخذ الأمور بحساسية؟

فرت دموعي مجدداً، فمسحتها بظهر يدي وأنا أقول:

- خنزير! بل الخنازير أظهر!

- توقفي عن استخدام تلك الكلمة المقيتة.

- إنها تلازمي كلما تذكرت أي معتدٍ يا جدي. الأستاذ وليد كان يشرح لي قبل أن يتحرش بي بثوانٍ درساً عن لماذا الخنازير تعد كائنات شرهة إذا جاءت أكلت لحم صاحبها دون صون للجميل والعشرة، كما أنها نجسة لا

تعرف غير الوسخ والوحل. والله إن الإنسان ليُخزِر أكثر من الخنازير نفسها. على الأقل، تلك الكائنات لا تعرف بالفطرة غير الشره والوحل، أما البشر فهم يختارون التمرغ فيه بكامل إرادتهم.

- أعجز عن فهم هؤلاء المتحرشين الأنجاس. يقبلون على فعلة محرمة في الأديان كلها ومجرمة في القوانين كلها وتستنكرها المجتمعات كلها، من أجل ماذا؟ اختلاس صفقة على المؤخرة أو قرصة نخذ أو لمسة ثدي؟ ماذا يجنون من هذه المخاطرة القدرة التي قد تكون تبعثها فضيحتهم أو حبسهم؟ أي متعة تلك التي يجدونها في التعدي على كائن كرمه الله؟

- كنت أظن أنني رأيت أهوال الدنيا بعدما فعله بي وليد، ولكن ما رأيته في حالات التحرش والاعتصاب التي تمر علينا في جمعيات التصدي للعنف ضد المرأة جعلني أمقت البشر أجمعين، وأقسم على ألا أنجب أطفالاً لهذا العالم القذر. الاعتداء الجنسي لم يعد مقصوراً على البنات، الناس صاروا ينتهكون الحيوانات والأطفال من الجنسين وحتى الشباب البالغين. لا ينقص سوى أن يغتصبوا ثلاثتهم!

- الأطفال! يا ويحي! والله إن هؤلاء المغتصبين ليستحقون الإبادة دون تردد. لو كان الأمر بيدي لما اكتفيت بأشرف.

التفت إليها، فرأيت على وجهها علامات الندم لأنها اندفعت في الحديث.

أوقفت السيارة على حيد الطريق ثم سألتها:

- جدتي، ألهذا قتلتِ زوجك أشرف؟ أكان يتحرش بالأطفال؟

هزت رأسها ثم قالت:

- كان مثل أستاذك وليم. رأيتُه بعيني يتحسس ابن حارس العقار بشبق. سألت نفسي إن كان يفعل هذا بطفل عابر على بيتنا لا نراه إلا إذا أحضر لنا الجرائد، فماذا يفعل برضيعي المقيم معه طيلة الوقت ولا يملك القدرة على الكلام بعد؟

- لماذا لم نتطقي وتسلميه إلى الشرطة بدلاً من أن تقتليه وتعرضي نفسك للإعدام؟

- الزمن غير الزمن يا بتول. أشرف هو ابن عمي، العائلة لن تأخذ صفني، سيظنون أنني أكذب حتى يطلقني وأتخلص من الزواج الذي أجبروني عليه بعد استشهاد شرف الدين. حتى لو طلقتُ، لا أملك دليلاً أحبسه به. فارت الدماء في عروقي وقتها، حقنته بالأنسولين في النهار نفسه الذي رأيتُه فيه يتحسس الطفل. كان يجب أن أردعه بنفسني، من أجل مستقبل منتصر ومستقبل أطفال الحي جميعاً.

فَرَّتْ دموعها، فلم أتمكن من عدم البكاء مثلها.

تعانقنا ومسحنا دموعنا، ثم رسمت جدتي ابتسامة باهتة على وجهها وقالت:

- أي همّ هذا؟ خرجنا لنروح عن نفسنا أم لنبكي مثل
أمك النكدية!

- أنتِ على حق. فلنبتع الآيس كريم الذي تحببينه ونسير
قليلاً على الكورنيش قبل أن نعود إلى بيتنا الذي يحتوي
على ثلثي مخزون العالم من النكد.

* * *

انتهت سهرتنا الترفيفية التي تخللها الكثير من الحسرة
والهم، إلى أن تأخر الوقت وعدنا إلى منزلنا.

نزلت جدتي أمام العمارة وسبقتي بالصعود إلى الشقة،
بينما اتجهت إلى الجراج حتى أصف السيارة.

لمحت مريم داخل سيارتها منهمة في البكاء، حتى إنها لم
تنتبه لوجودي.

صفت سيارتي ثم أسرعت إليها وطرقت لها على الزجاج
فانتفضت فزعة، ولكن حين لمحتني فتحت الباب ونهضت
من مقعدها لتقف أمامي حافية وتلقي بنفسها بين ذراعي.

- ماذا حدث يا مريم؟ ماذا بك يا صغيرتي؟

- بهيج... اغتصبني. ولا تقولي لي إنه زوجك وهذا حقه.

- حق ماذا! أهذا كلام أهلك؟

- كلاً. لا أحد يعرف ما صار لي سوى الدكتورة سناء.
أخاف أن أخبرهم، وأخاف أيضاً أن أعود إلى الشقة
فيكرر فعلته.

- على جثتي أن يمسك هذا الخنزير مجدداً.

مسحت دموعها الحارة ثم قلت لها:

- ابقى هنا.

- ماذا ستفعلين؟

- سأجعله يدفع ثمن فعلته ثم يطلقك.

- ستضربينه؟

- وربى لأكسر بدنه الذي يختال بعضلاته.

- لا يا بتول.

- لا؟! هذا حقك يا مريم. أتريدين أن...

- أريد أن أقتص لنفسي، لن أتركك تواجهينه بمفردك.

كان يستحم ويشغل الأغاني بصوت عالٍ ويغني معها
بمزاج رائع.

خنزير!

لم ينتبه لدخولنا عليه في الحمام وأنا أمسك مضرب
البيسبول الذي اشتريته من موقع أمازون، كي أَدافع به
عن نفسي دون الوقوع تحت جناحة حيازة سلاح أبيض.

أشرت إلى مريم أن تجذب عنه ستارة المغطس، فانتبه
لوجودنا والتفت خلفه ولكني لم أمهله.

ضربت رأسه ضربة محسوبة أفقدته وعيه، فسقط في
المغطس.

أعطيت مريم المضرِب ثم سحبت بدنه الثقيل خارج
المغطس وسحلته على الأرض حتى غرفة الاستوديو العازلة
للصوت، كي لا ينتبه أحد لصياحه حين يفيق.

بمجرد أن تركته على الأرض، وجدت مريم تهجم عليه
بالمضرب وتضربه ضربات شرسة بين ضلوعه ومنطقة
الحوض وساقيه.

لم أرَ من قبل هذا الغل والعنف في ملامح أختي الصغيرة
المسالمة التي تهوى العناق.

جذبت منها المضرب وأنا أقول:

- توقفي! ستسبين له عاهة! سيسجنونك.

- لا أبالي! يجب أن أعاقبه! سأؤذيه كما آذاني! حيوان!
حيوان!

انهارت بين يدي وأجهشت بالبكاء وهي تخطرف:

- لم أفعل شيئاً سوى أنني أعجبت به وحملت بيت معه.
لا أستحق ما صار لي، لا أستحق أن أقع في غرام
مريض يدوفيليا يشتهي الصبية.

- ماذا؟ مريم، ماذا قلت؟

- لقد رأيته هذا الصباح يشاهد على حاسوبه المحمول فيلماً
إباحياً لصبي صغير وهو يمارس الـ...

- بهيج يشتهي الصبية؟ إنه يمضي الوقت كله مع عيسى!

لمحت حاسوبه المحمول ملقى على الأرض، ولكن كانت
شاشته مهشمة.

كدت آخذه، ولكنني انتبعت إلى أن سروال عيسى ملقى
بالقرب من الحاسوب.

شهقت مريم، يبدو أن الأمر لم يخطر حتى على بالها.
انتشلت سروال أخي من على الأرض ثم خرجنا من
الغرفة، وأوصدناها بمفاتيح مريم حتى لا يهرب بهيج.
كانت خطتي أن تؤدب يجو ونعنفه، كما عنف أختي،
ثم نجبره على تطليقها، ولكن بعدما رأيت سروال شقيقي
الصغير ملقى في غرفة يبدو أن معركة طاحنة قد دارت
فيها، تسارعت ضربات قلبي وكلي ثقة أن هذه الليلة لن تمر
مرور الكرام.

نصرة

(قبل الجريمة يوم)

دخلت الشقة وما زلت أسمع صياح ابني، لعنة الله عليه.
كان في غرفة نومه وصابرين تقول له:

- ستفضح الولد، ابنك مستقيم ولا يفوت ركعة، لم
تستسهل إساءة الظن في أولادك؟

ما له وعيسى الآن؟

كان يوماً مشحوناً بالهم والأسى بما يكفي، فلو سمعت
مشكلة أخرى فعلها منتصر الوغد، غالباً سأقتله.

اتجهت إلى غرفتي وهممت أن أفتح الباب، ولكنه كان
موصداً.

طرقت الباب قائلة:

- من في الداخل؟

لم أسمع رداً.

- عيسى؟

لا رداً! ولكني أسمع أنين وخنين بكائه.

- افتح يا حبيبي، ما الذي فعله بك أبوك؟

فتحت صابرين باب غرفتهما واقتربت مني وهي تبكي
وتقول:

- في عرضك يا ماما نصره، ساعديني.

- ماذا فعلتما بالصبي؟ ألا يكفي أنه مكتئب من عيشتكما
المقرفة؟

سمعت ابني يصيح من غرفته في طريقه للانضمام إليَّ
وزوجته.

- اكتبابه هذا هو لعنة الله عليه من مسلسلات الشواذ
التي يشاهدها حتى أصابه ما أصابهم!

كان رد فعلي التلقائي هو صفع منتصر بأقصى قوتي،
وشاء الله أن تدخل ابنتاه في هذه اللحظة لرؤيته وهو يُصفع
أمامهما.

لم يصدق ما فعلته، إنها المرة الأولى التي أعنف فيها ابني
منذ أتى إلى الدنيا.

- قطع لسانك! ابنك هو سيد الرجال! أتخوض في
عرضك يا وغد؟

- أتضربيني يا أمي وأنا في هذه السن؟

- وأخلع رأسك عن كتفيك. ابنك الذي لا يعلو صوته
على صوتك مهما قسوت عليه وكرهته في حياته، تنعته
بصفة كهذه؟ بأي بهتان أتيت!

- حسناً، اسأليه بنفسك، لقد ضاجعه بهيج.

التفت نحو مريم وصاح فيها:

- لم تصطفي من بين رجال الدنيا سوى هذا النجس

الذي علم أخاك اللواط!

لطمت مريم وجنتيها وبكت، بينما شهقت بتول ثم صاحت:

- لقد انتهكه! أخي بريء من دنسه. هذا الحقير مريض يدوفيليا مغتصب، أخبريهم يا مريم!

- أجل يا أبي، بتول تقول الحقيقة. بهيج يشتهي الأطفال، لم أكن أعلم حتى اليوم. إنه خطر، يجن جنونه وينهش الأبدان دون حساب، يجب أن يُحاسب، يجب أن يحاكم على ما فعله بي وبعيسى.

- يحاكم! بأي تهمة؟ تهمة أن أخا زوجته الخرع سمح له أن يضاجعه!

كدت أطم منتصر مجدداً، ولكنه تصدى ليدي هذه المرة ودفعتني وصاح:

- كفى! أنتم نتوهمون. قد يغتصب الرجل امرأة، ولكن لا يغتصب الرجل رجلاً أبداً. ليس دون أن يستسلم إليه أو يستحلي ما يفعله به.

صرخت فيه بتول:

- لماذا؟ ألا يمكن للرجل أن يسرق بالإكراه؟ فكيف لا يغتصب بالإكراه؟

- لا تقولي اغتصب.

- أهون عندك أن تصدق أن ابنك القاصر مارس الجنس مع زوج أخته بكامل إرادته بدلاً من أن تصدق أن

عرضه هتك؟ لماذا؟

- لأن مدرساً تحرش بابنتي، ورجلاً هتك عرض ابني،
وسائق تاكسي اغتصب زوجتي، أي رجل أنا!

- منتصراً!

صاحت فيه صابرين، ثم بكت حين كشف سرها أمام
ابنتيها.

تراجعت وحاولت الهرب من أعيننا جميعاً، خاصة حين
قالت بتول:

- ماذا؟ أمنا اغتصبت؟

- لا، يا حبيتي. بالتأكيد لم اغتصب. منتصر لم يكن
يقصدني، يقصد زوجة أخرى.

اندفعت مريم صوب أمها فعانقتها وهي تبكي وتقول:

- أمي!

- يا حبيتي، لست أنا. أخبرها يا منتصر، أخبرها أي
زوجة تقصد.

مسحت بتول دموعها، ثم قالت لأبيها:

- يبدو أنك اخترت دفن رأسك في الرمل منذ زمن،
وجعلت من الإنكار دواءً لعجزك عن صوننا واسترداد
حقوقنا. حسناً، لا بأس، لسنا في حاجة إلى حمايتك لنا
بعد الآن، لن أترك فرداً آخر في هذه العائلة يُظلم بسببك.

اتجهت بتول صوب الباب وطرقته عدة مرات وهي

تنادي عيسى ولكنه لم يرد.

ركلت قلب الباب الخشبي الواهن ثم ضربته بمضربها الثقيل، فأحدثت ثقباً في الباب مكنها من دس يدها فيه وفتح القفل الداخلي.

دخلنا الغرفة فوجدنا عيسى غارقاً في دمه.

الكدمات تفترش وجهه وثيابه ممزقة، وشعره منسدل على وجهه، ويمسك مسدساً يوجهه صوب رأسه ويقول:
- لا تقتربوا!

صرخت صابرين، بينما وقف منتصر يقول:
- أتموت كافراً؟

- الله أرحم منك عليّ. الموت عندي أهون من العيش معك، أكرهك!

وقفت مريم تبكي وتقول:

- أتموت وتحرق قلوبنا عليك يا حبيبي؟

تركهم يحادثونه بينما اخترقت تجمعهم واتجهت صوب عيسى فقال:

- لا! ابتعدي يا جدتي! سأقتل نفسي!

كنت أعلم أن المسدس خالٍ من الرصاص، فأنا أبقى علبة الرصاص في جيب الحقيبة الجانبي ولا أتركه محشواً أبداً.

ظل يهدد بقتل نفسه وبتول ومريم وصابرين يصحن فيّ

كي لا أقرب منه فينفذ تهديده، ولكني تجاهلتهن جميعاً
وانتشرت مسدسي من حفيدي وألقيته بعيداً فسقط عند
قدمي صابرين.

جذبت عيسى إليّ وعانقته، فتلطخ صدري بدماء
جروحه.

بكي حبيبي المسكين، وأخذ يصيح بحرقة:

- عجزت عن الدفاع عن نفسي يا جدتي، لقد ضربني
ضرباً مبرحاً. والله أفقدني وعيي، لم أكن لأطاعه.

- أعرف! أعرف يا ولدي يا زين الرجال.

قبّلت رأسه ثم قلت له:

- بُني، ورحمة جدك، لأقتلن لك هذا النجس وأخفي
جثته وكأنه لم يرَ شمساً ولا قرأ.

- كلاً، سيشنقونك. سأقتله أنا.

- أتظني حمقاء حتى أترك دليلاً يدينني؟ اسمع يا ولدي،
لقد فعلتها من قبل، قتلت وغداً متحرشاً يشتهي الأطفال
ودفن دون أن يُفصح ويعلم الناس شرهه. لم يجد الناس
عبرة يعتبرون منها لهذا، مارسوا الشر نفسه دون أن يجدوا
رادعاً.

صاح منتصر:

- توقفي يا أمي! لا تحرضي ابني على فضح نفسه بنفسه.

- ما من مفضوح غيرك يا منتصر.

- هل جنتن جميعاً؟ أنتن تقضين على مستقبله! كيف
سيحيا باقي حياته والجميع يعرف ما حدث له؟ كيف
سيتزوج؟

صاحت بتول:

- توقف! توقف عن هذا الكلام المقيت! أنت تؤذي
أخي.

- اخوسي يا بتول، يا غراب الدار!

- لن أخرس! ليس بعد اليوم! سأخذ أخي وأذهب إلى
القسم. بهيج سيحاكم ولن نجعل أي صبي آخر يعاني ما
عانا عيسى!

- أنتِ لا تفعلين هذا من أجل عيسى، بل من أجل
نفسك حتى تشعري بأنك انتقمت من وليد. أنتِ منافقة!
- وأنتِ جبان!

صفع بتول وانقض عليها وأخذ ينزل صفعاته عليها.
حاولت مريم وصابرين أن تبعدها عن بتول، ولكنه ظل
يصيح:

- لا أحد من أهل بيتي سيخطو إلى مركز الشرطة. لن
تفضحني، يا عاهرات!

تثبت عيسى بي وارتجف خائفاً، ولكني تركته واتجهت
إلى حقيبتى المفتوحة التي أخذ منها المسدس.

سحبت بندقيتي واستغللت انشغال منتصر بضرب ابنتيه، ثم
هويت بكعب سلاحي على رأسه ففقد الوعي ونزف.

نظروا إليَّ جميعاً في حالة من الصدمة، ولكنني لم أُبالِ.
استندت إلى طرف البندقية وقلت:

- والآن، عيسى يا حبيبي، الاختيار اختياري وحدك.
تريد أن نقتل الوغد اللعين أم نتركه للقضاء حتى يحققوا
العدل ويقتصوا منه لضحاياه جميعاً؟

ظل الصغير يقلب نظره بيننا وكأنه ينتظر منا أن نغششه،
ثم قال:

- العدل.

- تفهم تبعات ذلك يا ولدي؟ الأمر لن يكون سهلاً.

هزَّ رأسه ثم كرر الكلمة نفسها:

- أريد العدل.

اقتربت بتول وعانقت أختها الباسل، وهمست إليه باكية:

- نحن معك يا حبيبي. سنعاضدك حتى ينتهي الأمر.

صدقني، سنوات من التعافي خير من عقود من الصمت
والإنكار.

المرحلة السادسة

إعادة البناء

١٨

عيسى

(ليلة الجريمة)

تخطينا منتصف الليل، فأعلنت الساعة عن يوم جديد،
العاشر من أغسطس.

جدتي أمرت مريم بأخذ أبي إلى الطبيب، بينما ظلت
أمي جالسة على الأرض في صمت، لا تعلق ولا تتكلم.
أخبرتها جدتي أنها وبتول ستأخذاني إلى القسم فهزت
رأسها ولم ترد.

ساعدتني بتول على الدخول إلى الحمام وتهيئة نفسي
للذهاب إلى القسم، فتطوعها مع جمعيات التصدي للعنف
ضد المرأة جعلها خبيرة في التصرف في ظروف كهذه.

أخبرتني ألا أستحم ثم غسلت لي وجهي وضمدت
جروحي، وأخذت مني ملابسني ولفتها في ظرف ورقي
كبير حتى لا تفقد ما عليها من آثار الجريمة وتفيدنا في
التحقيقات.

وجدت صعوبة وألماً شديداً في الجلوس في سيارتها،
كانت مقعدتي تن ألماً بمجرد أن تلمس أي سطح.

جلست جدتي بجواري، تضع رأسي على صدرها وتربت
على شعري.

كم كان الأمر غريباً.

كنت في حالة يرثى لها، ولكن بطريقة ما، لم يركز عقلي
على أي شيء سوى التفكير في رد فعل لارا إذا عرفت ما
حدث لي.

هل سأظل في نظرها البطل الذي دافع عنها وتصدى
لمن تحرشا بها، أم سأكون الصبي القاصر المسكين الذي
تعرض للاغتصاب على يد مريض بيدوفيليا؟

الفكرة وحدها أطبقت على صدري، وشعرت بنار السعير
تلتهب بداخلي.

أردت أن أبكي، ولكن يبدو أن دموعي تخلت عني
وهجرتني دون عودة.

بدأت أدرك أن الأمر أكبر من لارا بكثير، ماذا سيقول
عني الناس جميعاً، إذا كان أبي نفسه نعتني بـ«اللوطي»؟

أعرف ماذا سيقولون؛ فتى ضعيف عديم الرجولة عجز
عن حماية نفسه. ولكنهم يقولون هذا عني على أي حال
لمجرد أنني تأثرت بموت زميلتي وأصبت بالاكتئاب.

يقولون هذا عني لأنني أحب اللون الوردى، لأنني أربط
شعري للخلف، لأنني أستخدم بعض المفردات الفرنسية
في حديثي، لأنني أطلب بمساواة الذكر والأنثى، لأنني
عاطفي وبعض الأفلام المؤثرة تدمع عيني.

هل حقًا أبالي الآن بما سيقولونه بقدر مبالاتي باسترداد
حقي من بهيج؟ بقدر مبالاتي بالقصاص منه وجعله عبرة
لأي مُعتدٍ مثله؟ لأي شخص يشتهي القاصرين؟ لأي معلم
تحرش بتلميذته مثل وليد الكيلاني؟ لأي سائق تاكسي غدر
بزبونتته واغتصبها مثلها حدث لأمي؟

صمتي سيمكّن المغتصبين أشباههم ويعطي الحق لأمثال
أبي بأن يصموننا بالضعف والعهر ويلقوا علينا اللوم لمجرد
أنهم لا يقدرّون على مواجهة ضعف أنفسهم وعجزهم عن
حمايتنا.

تجريد الضحية من براءتها والدفاع عن المجرم، هو أسهل
مليون مرة من تحمل اللوم على تمكين الجاني وتيسير اعتدائه
علينا من الأساس.

كنت دائمًا أقول لماجد إنني مكتئب لأنني عاجز عن
مساعدة من يعانون من حولي. اليوم، سأتمكن من مساعدة
نفسي ومن هم مثلي. من صرخوا ولم يجدوا من يلي
نداءهم، أو من صمتوا وتكروا من فاجعتهم.
اليوم، سأحدث فرقًا.

وصلنا إلى قسم قصر النيل.

طلبت بتول من جدتي أن تبقى معي في السيارة،
وستدخل هي أولاً لترتيب الأمور.

أعتقد أنها أرادت أن تتحدث مع الضابط وتقص عليه ما

حدث، دون أن أسمعها وأتأثر بما سترويهِ عني فأسترجع
جفاعة الأمر.

نظرت جدتي إليّ وقالت:

- أتود أن تبكي يا ولدي؟

هزرت رأسي نفيًا، كنت اكتفيت من البكاء على أي
حال.

قبلت جبيني، ثم قالت:

- أردت فقط أن أعلمك أنك لست في حاجة إلى تصریح
منا حتى تفرغ ما بفؤادك.

غابت عنا بتول قرابة نصف الساعة ثم عادت إلى السيارة
وقالت لي:

- حبيبي، وجدت أطف ضابط يمكن أن تلقاه في
حياتك، شرحت له الأمر. لديه فقط بضعة أسئلة. في أي
وقت تشعر بالضيق يمكننا أن نعتذر إليه ونرحل.

- هل صدقك؟

- بالتأكيد، لم يطلبك للتحقيق معك! يود أن يراجع معك
بضع معلومات وبإذن الله سنحبس هذا الخنزير!

هزرت رأسي ونزلنا من السيارة، ثم دخلت معهما إلى
القسم لأول مرة في حياتي.

لم يكن المكان مزدحمًا مثل أفلام التلفزيون، بعض
الضباط والعساكر وأمناء الشرطة يتحركون ويشربون الشاي
ويحملون بعض الملفات.

رأيت بعض الشباب يمشون والأغلال في أيديهم، ولكني لم أر أي مناظر عجيبة أو مخيفة.

دخلنا إلى مكتب الضابط الذي حكى لي بتول عنه، كان اسمه عجيباً، قطز المحمدي.

قيصه ناصع البياض، ويشرب كوباً من الكاكاو الحلو وأمامه بضع أوراق وبجواره أحدث رواية للكاتبة آسيا خضر.

ربما لهذا وجدت أنفه المعقوف ووجهه المتطاول وشعره الغزير مألوفاً، أعتقد أنني رأيته في إحدى ندوات آسيا خضر.

نهض الضابط وسلم عليّ بترحاب شديد، وكاد يربت علي كتفي ولكنه تراجع، ربما شعر بأنه من الغباء أن يلمسني أي رجل غريب الآن.

جلست على الكرسي المقابل له تخلفني جدتي وبتول. همست إليّ بتول قائلة:

- أتفضل أن نخرج من الغرفة حتى نتحدث بحرية، أم تود أن نبقى معك يا حبيبي؟

نظرت إلى الضابط، كان يتسم ببشاشة تصل إلى حد البلاهة، فقلت لها:

- انتظريني عند الباب.

هزت رأسها وخرجت هي وجدتي.

نظر إليّ الضابط، وكنت أرى التعاطف القاتل في عينيه حتى سعل، وقال:

- ستأخذ حقلك. عقوبة ما حدث تصل إلى خمسة عشر عاماً.

- متى ستقبضون عليه؟

- الآن. سأذهب معك وأثبت الحالة وألقي القبض عليه وأستجوبه وأحوله إلى النيابة. النيابة بدورها ستحولك إلى الطب الشرعي. ولأنك قاصر، لن يطول الأمر على ثلاثة أشهر حتى نزج به في السجن ويصبح عبرة لمن يعتبر. ولكن، خلال هذه الفترة، ربما نتعرض لبعض المخاوف على مواقع التواصل الزفت الاجتماعي. ماذا ستفعل وقتها يا بطل؟

- سأتماسك و...

- بل ستبلغ عن أي سافل يتمر عليك أو يسبك. وبحق ربي، لآتي إليك بحقلك منه. كله بالقانون.

هزرت رأسي إيجاباً.

كانت بتول على حق، قطز هو أطف ضابط يمكن أن نتعامل معه.

قدم إليّ ورقة وقلها وقال:

- كتبت الأسئلة التي ستفيدنا في التحقيق. أعلم أنك مرهق بما يكفي ولا تود أن تمضي الليل في الحديث. لهذا، فقط اكتب نعم أو لا بجوار كل سؤال، ويمكن أن

تسهب في الوصف إذا أردت. أحاول فقط أن أيسر عليك الأمر.

تنفستُ الصعداء.

فكرة أن أقول لقد لمسني هكذا وفعل هذا وفعل ذلك كانت مقبلة. أعجز عن النطق بوضوح بما صار لي بصوت عالٍ أمام شخص غريب، لهذا ابتكار أن أضع علامة بجانب الإجابة أثلج صدري.

أخذت منه الورقة والقلم، لم أكن أعلم أن يدي ترتعشان بهذه القوة.

سألني:

- أتود أن تأكل شيئاً؟ لدي بعض شطائر شاورما الدجاج من فلفلة.

هزرت رأسي نفيًا.

- حسنًا، فلتشرب شيئاً على الأقل. هل تحب الكاكاو؟

هزرت رأسي نفيًا للمرة الثانية، فأضاف:

- ماذا عن الليمون؟

- حسنًا.

- صديقي مثلك، يعشق الليمون.

نهض عن مقعده وقال:

- سأطلب لك الليمون وأنتظر في الخارج. ستجد رزمة

من الأوراق الخالية على يسارك. خذ وقتك واكتب ما

تشاء ونادني فور أن تنتهي.

خرج وتركني مع الأسئلة.

كانت مفصلة ودقيقة، وتخلو من الأوصاف الجارحة والفجة.

أجبت عنها وأنا أستعيد تفاصيل ما صار معي، ثم سحبت ورقة خاوية، ملأتها بأحداث أتعس قصة قصيرة كتبتها في حياتي.

فرغت كلماتي وامتلات عيناى بدموعي. أخيراً زارني البكاء.

وضعت الأوراق جانباً، ودفنت وجهي بين كفي وأخذت أبكي، إلى أن هدأت.

مسحت دموعي وتأوهت مع كل جرح ألمسه في وجهي، وأخذت أنفاساً عميقة متكررة ثم ناديت الضابط، فدخل ومعه الليمون وبتول وجدتي.

وضع الكوب أمامي، وأخذ الورقة دون أن ينظر إليها، فحمدت الله على ذلك. لا أريده أن يقرأ ما كتبت أمامي وأرى نظرات الشفقة على وجهه.

انتشل مفاتيحه وأغلاله وأحكم وضع سلاحه في حزامه، ثم قال:

- هيا يا بطل! سنعيد هذا المسعور إلى قفصه!

كانت هذه خطتنا، نسلم بهيج الضاري إلى القانون حتى يقتص منه المجتمع كله. ولكن من منا أخل بالاتفاق،

وقرر أن يطلق عليه الرصاص ويرديه صريعاً في غرفة
الاستوديو؟
لا فكرة لديّ.

صابرين

(ليلة الجريمة)

كل المصائب هينة إلى أن تصيبك.

في مايو ١٩٩٥، خرجت من بيتي وأنا أحمل بتول بين ذراعي.

لم يتخطَّ عمرها العام والنصف آنذاك، وكان عمري أنا عشرين عاماً فحسب.

كنت في طريقي إلى طبيب الأطفال لمتابعة حالتها، فقد كانت تصاب بنوبات حمى متكررة.

لم يكن منتصر بدأ عمله في الخارج بعد، كان لا يزال يعيش معنا في القاهرة، وعلى الرغم من ذلك، مارس تنطعه وتحجج بأنه مرهق بعد يوم عمل طويل، ولا يقدر على إيصالي من الزمالك إلى الهرم.

- لماذا اخترتِ طبيباً بعيداً عنا كل هذا البعد؟

- لأنه الأفضل في مجاله بشهادة الجميع يا منتصر.

ألقى إليّ المال، وقال:

- اركبي تاكسي.

فعلت ما قاله.

كانت مقاعد التاكسي مفروشة بفرش أحمر عجيب،

ونتدلى من مرآته الأمامية فواحة على شكل ثمرة جوز هند.
كانت رائحتها قوية جداً.

سلك السائق طريقاً لا آلفه، فأنا لا أجيد القيادة ولا
أخرج كثيراً من منطقة الزمالك على أي حال حتى أحفظ
الطرق.

كان يشغل شريطاً لمحمد منير، ويكرر معه كلمات أغنية
«أنا بعشق البحر».

مرضت بتول فجأة وكانت ستتقيأ، فأخرجت كيساً
بلاستيكياً من حقيبتي كالعادة حتى تفرغ ما بمعدتها فيه.

انشغلت بها وبتنظيف ثيابها ووثيابي وهددهتها حتى
تتوقف عن البكاء، وفجأة أوقف السائق السيارة.

لا أدري أين كنا! الطريق هادئ بشكل مريب، ولا أثر
لأي نور سوى كشافات التاكسي الأمامية.

- أين نحن يا أخ؟ هل تعطلت السيارة؟

نزل من السيارة بهدوء وفتح الباب الخلفي فوجدته
يقرب مني، وقد أخرج أعضائه من سحابه.

جذبني من ساقى فصرخت فيه.

سحب الكوريك من مقعده، وقال بكل هدوء:

- سأكسر جمجمة ابنتك إن قاومت.

عرضت عليه أن يأخذ أموالى والذهب الذى يزين
صدرى ورسغى، وحتى قرط بتول وسلسلة «ما شاء الله»

التي ترتديها.

- خذ كل شيء، ودعنا نرحل بسلام.

ولكنه لم يرد سوى شيء واحد وقد أخذه مني في صمت
لم يقاطعه سوى بكاء ابنتي.

حتى الآن، أحمد الله أنها كانت في هذا العمر، ولم ولن
تذكر أبداً أنها رأت أمها في هذا الوضع.

انتهى، ثم قال إنه سيكافئني لأني لم أصرخ، سينزلي علي
الطريق السريع لآخذ تاكسي آخر.

صدق في وعده، أكثر الله من خيره، ثم طالبني بالأجرة.

قدرا!

كنت مرعوبة من أن أركب أي سيارة أجرة أخرى،
سرت على قدمي، ارتدي الكعب العالي وأضم بتول
الباكية إلى صدري، والسيارات تسرع من جواربي
وتضرب أبواقها ويتلفظ سائقوها بألفاظ جنسية قذرة.

تمنيت لو كانت إحداها دهستني، ولكن ما ذنب بتول
حتى تموت في حضني!

وصلت إلى أقرب محل بقالة فيه هاتف، واتصلت
بمنتصر.

- يجب أن تسرع إلى مكاني وتوصلني إلى البيت.

- ماذا حدث لك؟

- سرقت حقيبتني بكل ما فيها.

أخذ يشتمني لأنني بلهاء وفقدت أشياء مرة أخرى،
وأني ما زلت أتصرف مثل المراهقات لا كشابة أتمت
عامها العشرين.

انتظرته أمام محل البقالة. لم أبك، لم أصرخ، لم يحدث
أي شيء. أهدد بتول وأتلفت حولي بقلق فحسب.

أتى بسيارته البيجو الحمراء، ألقيت نفسي بداخلها فرأى
حقيبة يدي معلقة على كتفي، فقال:

- هل استعدتِ حقيبة يدك؟

هزرت رأسي نفيًا، ثم همست إليه بصوت واهن بالكاد
يُسمع:

- لم أفقد حقيبة يدي... سائق التاكسي وقف في مكان
مجهول واعتدى علي!

نظر إلي وإلى بتول الجالسة في حجري وقد سقط رأسها
على صدري بعدما نامت من إجهاد البكاء.

بدون أي مقدمات، صفعني بعنف، فشعرت بطعم الدم
يغزو فمي.

انتفضت بتول من شدة الصفعة وبكت مجددًا.

هربت الدموع مني دون أن أنطق بحرف.

كور منتصر قبضتيه، ثم نظر إليّ وجذب طرف تنورتي
بعنف وهو يهددني كأنه سيلكني، وقال:

- كم مرة نهيتك عن ارتداء هذه التنورة القصيرة وهذه
البلوزة الضيقة!

- أنا آسفة! أنا آسفة!

- كيف تركته يجيد عن الطريق ويقودك إلى منطقة
مجهولة؟

- بتول كانت نتقياً... لم أقصد! أنا آسفة!

- ما رقم لوحة سيارة التاكسي؟

- لا أعرف! لا أعرف!

- وإن كنت لا تعرفين، كيف سأصل إليه لأثار لشرفي؟

- لا نثار، لم يحدث شيء، لا داعي للفضيحة!

- وأي فضيحة! جلبت لي العار يا صابرين! حسبي الله

ونعم الوكيل فيك!

- أنا آسفة، لم يرني أحد، لا أحد يعرف شيئاً... لن أقول

لأي شخص!

- أين أنزلك هذا النجس؟

- على الطريق السريع.

لكم كتفي بقسوة، وصباح:

- وسرت بهذه الملابس في الليل على الطريق السريع! من

الآن فصاعداً سترتدين ما أختاره لك. لا مزيد من التسوق

بمفردك. ستصغين إلى أوامري. شمال شمال، يمين يمين.

- حسناً، حسناً. كله بأمرك يا منتصر!

في اليوم التالي، تحجبت.

في الشهر التالي اكتشفت أنني حامل.

لم أخاطر حتى بأن أخبره بحملي، أجهضت الطفل في صمت، فمذ أن اعتدى السائق علي، ومنتصر هجر فراشي، وبالتأكيد سيثك أن هذا الطفل هو ابن السائق على الرغم من أننا تعاشرنا في المساء الذي سبق اغتصابي.

رزقنا الله بعقد عمل لمنتصر في الإمارات، فلم أعد أراه سوى مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، يمضي الصباح مع بتول ثم يبيت في المساء عند امرأة تزوجها بعدما اغتصبت بثلاثة أشهر.

لم نتحدث عما صار لي مجددًا، ولم نتعاشر إلا بعد سبعة أعوام، فرزقنا الله بمريم.

توترت الأمور حين أخبرتني بتول أن معلمها تحرش بها، أخذتها لطيفة النساء فأكدت لي أنها ما زالت بكرًا.

حمدت الله أنها لم تختبر بشاعة ما اختبرته أنا.

حاولت أن أصبرها وأخبرها أن كل شيء سيصير على ما يرام، صدقيني، ستسرين مع الوقت.

يا لك من كاذبة يا صابرين! وكأنك أنتِ نسيت، ولم يعد لديك رهاب قاتل من سيارات الأجرة ومن رائحة جوز الهند ومن صوت محمد منير.

كانت بتول متمردة، أصرت على أن تقتص لنفسها فاتصلت بأبيها في الإمارات وأخبرته بما صار كي يأتي وينتقم لها من معلمها.

حمقاء! منذ متى والرجال يقتصون للنساء، لا يعرفون
سوى القصاص منهن؟

فعل بها ما فعله بي، لامها لأنها نسيت أن ترتدي سروالاً
قصيراً أسفل تنورتها هذا الصباح، وبالطبع لآمني لأنني لم
أعلم ابنتي كيفية الدفاع عن نفسها.

يا أخي، كنت دافعت أنا عن نفسي!

هدد بأن يطلقني، فقد زادت مشكلاتي، وكأنني أتعمد
تلويث سمعته بأي طريقة ممكنة.

أخبرته أنني فعلت ما بوسعي، علمتها ما علمتني أمي
وخالاتي وعماتي من بعد وفاتها.

لا تفرج ساقها عند الجلوس، لا ترتدي تنورة دون
سروال قصير من تحتها، لا تبيت في منزل صديقة فيه
أب أو أخ، لا تقود العجل، لا تقفز بقوة في المسبح، لا
تركب الخيل في رحلة المدرسة للأهرامات.

فعلت ما بوسعي يا أخي، وريت ابنتي، ولكن كيف
كان من المفترض أن أربي مدرستها وأعلمه ألا يتحرش
بتلميذة تصغره بثلاثين عاماً؟

فقدت أعصابي يوماً، وأخذت أصرخ فيه فصفعني
صفعتين متتاليتين أمام بتول.

- آسفة يا منتصر. سأحاول أن أكون زوجة وأماً أفضل.

لم يكتفِ اللعين بنقل البنت إلى مدرسة مختلفة، لكنه
أخذها دون علمي وختمها.

- لماذا يا منتصر؟

- حتى أعلمها العفة. الفتيات في سن المراهقة يستثنى،
عنها أعجبت بهذا المعلم وأرادته أن يطفى لهيب شهوتها
المستجدة.

قطع الله رأسك يا منتصر ويد الطيب المجرم الذي فعل
هذا بابنتي.

دخلت بتول غرفتها وعيناها حمراوان من فرط البكاء،
ولكن بمجرد أن لمحتني أدخل عليها حجرتها، امتنعت عن
البكاء أمامي.

حاولت أن أعانقها على عكس عادتي، فدفعني بعنف.
صاحت فيّ، نعتني بالجبانة، بالكاذبة، بالعداوة،
بالضعيفة. وأخذت تكسر أثاث غرفتها، ثم أوصدت بابها.
من يومها، لم يفتح بابها في وجهي مجدداً.
لا تعتبرني أستحق لقب أم ولم تعد حتى تحترمني، بل
تحقر شخصيتي.

ما عليها شيء، أنا أستحق احتقارها لي.
ينعتها أبوها بـ«القبيلة الموقوتة». من الذي صنع هذه
القبيلة يا منتصر؟ إنها من صنعنا يا عزيزي.
هذا الجيل ثائر، يعرف الصياح، يعرف الاعتراض،
يعرف حقوقه.

تسألني بتول بعد كل زيارة لمنتصر لنا:

- كيف تتحملين أبي يا ماما؟

- وما خطبه يا حبيبة ماما؟ الرجل لا يحرمننا من شيء
وكل طلباتنا مجابة.

- وهل الزواج بقالة وملابس؟ أين حقوقكِ يا أمي؟

- أي حقوق يا بتول؟ أنا راضية بحالي.

- بل أنتِ خنوع، خاضعة للظلم. أين حقوقكِ كزوجة؟
ألا يحق لك أن يعدل زوجك بينك وبين باقي زوجاته؟ أن
يكون زوجك ساكناً معك في البيت نفسه وتجديه بجوارك
متى احتجتِ إليه؟ أن ينام معك في الفراش نفسه؟ أن
يلبي حقك الشرعي عليه؟

قليلة الأدب، تقصد الجنس!

تلك الكتب الأجنبية التي تترجمها علمتها قلة الحياء
والبجاحة.

تقول لأمها في وجهها من حقك أن تجدي زوجك
يطارحك في الفراش!؟

ما عليه شيء يا قلب أمك. غداً تتزوجين وتفهمين الخيبة
بنفسك.

قال زوج يلبي حقك الشرعي قال.

وعياها يثير حفيظتي، ولكني أحمد الله أن لي ابنة تعرف
ما لها وما عليها، ابنة لن تتلقى صفعات زوجها بابتسامه،
ولن تغتصب فتقول أنا آسفة لأنني اغتصبت، ساحوني
لأنني كنت ضحية.

أخاف من قوة بتول، وأحسدها عليها.

ليتني كنت في نصف ذكائها، لما انتهت بي الحال وأنا
أجلس الآن بمفردي في الشقة أبكي خيبي وحسرتي بعدما
خرج منتصر مع مريم إلى المشفى، وذهبت بتول ونصرة
وعيسى إلى القسم.

أنا التي اصطفت بهيج زوجاً لابنتي، أنا من لفت نظر
مريم إليه وأخذت أغزل خيوط المودة بينهما.

لقد وثقت به، أدخلته بيتي، زوجته لابنتي، اعتبرته ابني
الثاني، وشجعت عيسى على الوثوق به وتقضية الوقت معه.

كنت أحنو عليه لأنه يتيم مثلي، أطهوه له أشهى الأصناف
وأشترى له السبح والمصاحف وأجعله يناديني بماما.

أ يكون هذا جزاء الإحسان؟ يغتصب ابني وابنتي في اليوم
نفسه؟

ثم تأتي بتول بثقة وتقول سنبلع عنه الشرطة يا ماما.

ما الذي ستفعله الشرطة يا عين ماما؟

صحيح أنني لم أكل تعليمي في كلية الحقوق، ولكني أعني
ما أقوله، كلمة اغتصاب لا تنطبق على الذكور يا حبيبتي،
يصنفونه كهتك عرض، أي أنه لن يُعدم أبداً، أقصى
عقوبة ستكون خمسة عشر عاماً، ثم يخرج بعدها يغتصب
المزيد من الصبية أو ربما يأتي إلينا لينتقم منا.

تقول لي هذا الحق يا ماما، يجب أن نجعل منه عبرة حتى
نردع باقي المعتدين الجنسيين.

أي حق يا قلب ماما؟ بمجتمعنا لا يحق للرجال أن يكونوا
ضحايا على أي حال.

لا نملك حتى خط نجدة للعنف الجنسي ضد الرجال.
يوجد خط نجدة للطفل. حسناً، ماذا لو لم تكن الضحية
طفلاً، لو كان عيسى عمره ثمانية عشر أو تسعة عشر، أي
أنه ليس قاصراً، أكننا سنجد من يهتم بنجدته؟
هذا المجتمع صنع ليزعزع ثقتنا بأنفسنا، يبيعون للنساء
الخزي والعار، وللرجال الذكورة المهشة.
يا حزني عليك يا بني، ستفضح نفسك هباءً.
بكيت.

لا أدري هل أبكي على حالي، أم على حال بتول، أم
على حال مريم، أم على حال عيسى، أم على حال البشر
أجمعين!

وسوست لي الشياطين، وكررت كلمات بتول أنتِ جبانة
يا ماما لا تعرفين غير الندب والنحيب، ولكن لا تأخذين
أي موقف من أجلنا.

حسناً، تحسبون أن الشجاعة في الصراخ بأعلى صوتكم
حتى يدري الجميع ما أصابكم، يا جيل الإنترنت؟
بعد عقود من الصمت والقهر، ستتعلمون نوعاً مختلفاً من
الشجاعة يا أولادي.

أخذت مسدس نصره وحشوته بالرصاص.
كان الأمر صعباً، ولكنه ليس مستحيلاً على امرأة

فؤادها محمل بالحسرة مثلي.

أخذت مفاتيحي وصعدت إلى شقة مريم.

فتحت الباب وذهبت بخطوات بطيئة إلى غرفة الاستوديو.

تركت بتول المفتاح في قلب القفل حتى يصعب علي بهيج محاولات فتحه.

فتحت الباب، وفجأة خرج صوت بهيج وهو يصيح ويطلب النجدة، ويحاول شرح الزجاج العازل للصوت المطل على الطرقة بالكرسي.

ابن المفضوحة كان يقف عارياً كما خلقتة أمه.

أمسكت المسدس كما في الأفلام الأمريكية، وأطلقت الرصاصة، ثم شعرت بألم رهيب في إصبعي ونفرت منها الدماء، المسدس أصدر شظايا أحرقت جلدي وجرححت لحمي.

كانت رصاصتي طائشة، اخترقت ساعة الحائط على يسار بهيج، ثم استقرت في الجدار المبطن.

انتفض اللعين من مكانه وكان سيركض صوبي، لينتشل مني المسدس، ولكن هذه المرة كانت حواسي متيقظة، لن ينتصر عليّ مُعتدٍ آخر.

أطلقت الرصاصة الثانية فأصابت رأسه وسقط أرضاً.

كانت سبابتي تنزف وتؤلني بشدة، ولكن كان قلبي هانئاً.

تريد بتول أخذ حق عيسى بالقانون، لا مانع، ولكني
لن أترك مجالاً لأي ثغرة، سواء كان الحكم في صالحنا أو
ضدنا، بهيج لن يعتدي على أي طفل آخر.

خرجت من الغرفة وأغلقت بابها بالمفتاح كما كان،
وألقيت المسدس بجيبي.

غسلت يدي من الدم ولففتها بالشاش، ثم خرجت إلى
الشوارع.

تمشيت على كورنيش الزمالك.

يا الله، كم أن ساعة الفجر مريحة وفيها شفاء للروح، لا
زحمة سير، ولا ضجيج سيارات.

استندت إلى السور، بعدما انتهت صلاة الفجر وبقيت
أراقب انعكاس أضواء البواخر السياحية الملونة على صفحة
نهرنا الخالد.

أسمع الأغاني وأرى الشباب يرقصون في المراكب. كم
يبدون سعداء!

يسير من حولي الأحبة الشباب، ما أجملهم!

هل تعرضت والدة أحدهم للاغتصاب، أو أختهم
للتحرش، أو هتك عرض أخيم الصغير؟

سمعت ضيفاً في برنامج مدام مفيدة شيحة يقول إن
واحدة من كل ثلاث سيدات تتعرض للعنف الجنسي.

الحالة مختلفة في عائلة شرف الدين، ابتلانا الله بحالتي
اغتصاب وحالة تحرش وحالة هتك عرض، وكان

المعتدين الجنسيين لم يجدوا ضحايا غير أعضاء عائلتي.

كان الأستاذ في الجامعة يقول لنا إن الأسرة هي نموذج مصغر للمجتمع، إن استقرت الأسر، استقر المجتمع كله. أهذا يعني أن حال مجتمعي بأئسة كحال عائلة شرف الدين؟

لا أظن، فأنا لا أرى نظرة الانكسار والكسرة في أعين من حولي، كما أراها في عيني كلما نظرت إلى نفسي في المرآة، ولكنني اعتدت احتراف إخفاء هذه النظرات المفجعة على كل من أعرفهم، ربما من حولي يفعلون الأمر نفسه على الرغم من أنهم أصيبوا بما أصابنا.

لا يعرف الناس ما يدور خلف الأبواب المغلقة، قد يرون نصيبك من الرزق، ولكنهم يجهلون حظك من الرزء.

الناس يرون تفوق عيسى، واجتهاد بتول في عملها، وجمال مريم ورقتها ورومانسيتها، وأموال زوجي الطائلة من العمل في الخارج، ولكن لا أحد يرى ضراوة مصائبنا. لا أحد يذيع خيبته على العن على أي حال.

ليني أعرف لسائق التاكسي طريقًا، والله لكنت أطلقت عليه الرصاص هو الآخر. وحده ربي يعلم كم زبونة غيري اغتصبها، فهجر زوجها فراشها وأذلها ليلاً ونهاراً، وعالرها بأنه لم يطلقها وقبل بها بعدما وطأها غيره.

تنفست نسائم الليل وودعت النيل الخلاب وأناسه السعداء، ثم عدت إلى البيت.

وجدت سيارة إسعاف تنطلق من أسفل عمارتنا.
دخلت شقتي، ولكني لم أجد فيها أحداً سوى الكلب،
فصعدت إلى شقة مريم.

وجدت شاين غريبن، أحدهما يتأبط ذراع نصره
والآخر يحادث منتصر، لعنه الله، وهو يصيح فيه بشيء لا
أفهمه ولا أبالي به.

انتبه الأولاد لي وكذلك نصره. يبدو أنها تعرف ما فعلته،
فقد كانت تبسم لي بفخر.

لم يفخر أي شخص بي من قبل.

سألها:

- ماذا بك يا ماما نصره؟ من هذا الشاب؟

- أنا الرائد نوح الألفي.

نظر إلى يدي اليمنى.

- ماذا أصاب يدك يا سيدتي؟

نظرت إلى كفي اليمنى فوجدتها ما زالت تنزف، وقد
تبقع الشاش كله وصار لونه أحمر.

- لقد أسأت استخدام المسدس فجرحت نفسي.

أخرجت المسدس من جيبي واتجهت نحو الضابط الذي
وضع يده على طرف مسدسه في حالة من التأهب.

رفعت يدي إلى أعلى وأنا أقول:

- أسلم نفسي. أنا قتلت بهيج سليمان دامس، لعنه الله في الأرض وفي السماء.

صرخت مريم وبكت بتول، وفرت الدموع من عيني عيسى.

أمر الضابط أحد رجال المعمل الجنائي حتى يأخذ المسدس مني وهو يرتدي قفازات طبية، ثم يضعه بحذر في كيس غريب.

هرول أولادي الثلاثة تجاهي وعانقوني.

لم يعانقوني بهذا القدر من المحبة من قبل.

قبلت يد بتول ورأس عيسى ووجنتي مريم. لا أخاف عليهم، سيعتقون ببعضهم في غيابي.

ربت نصره على ظهري وقالت:

- ستعودين إلى بيتك سريعاً يا أم الأبطال. النجس لم يمت، لا يستحق أن يُحرم أولادك منك بسببه.

كان نبأً محزنًا، ولكني لا أدري كيف كنت على وشك أن أحرم نفسي من حضن أولادي وأتركهم لقسوة منتصر.

على ذكر منتصر، استأذنت من الضابط قبل أن أخرج معه من الشقة ووقفت أمام زوجي.

صفعته الصفحة نفسها التي سددها إليّ يوم اغتصبت، ثم قلت له:

- طلقني!

ودَّ أن يردَّ إليَّ الصَّفحة، ولكن الضابط صاح فيه، وحال
بيننا ثم أخرجني من الغرفة.

كنت أظن أنه سيغل يدَي مثل الأفلام ولكنه لم يفعل.
لم أبدُ كشخص له المقدرة على الركض والهرب على أي
حال.

نزلنا من العمارة بين نظرات استغراب الجيران والمارة،
ثم ركبت سيارة الشرطة.

لم أشعر في حياتي كلها بالحرية بقدر ما شعرت بها في
طريقي إلى القسم، لمواجهة تهمة الشروع في قتل زوج
ابنتي.

المرحلة السابعة

التقبل

٢٠

مايكل

(بعد الجريمة بثلاثة أيام)

أيقظتني أمي وطلبت مني أن أخرج لأنضم معها إلى عمي
في الصالون.
رفضت.

كنت أمر بنوبة اكتئابية، ولا أملك ما يكفي من الطاقة
لأفتح عيني حتى.
أصرت على أن أستيقظ، فلمست في صوتها نبرة نحيب،
ثم لمحت في عينيها حمرة البكاء.
انتفضت لأسألها:
- ماذا حدث؟

أجهشت بالبكاء، ثم نادى عمي بيتر ليأتي إلى الغرفة.
وجدتها تبكي فربت على كتفها، ثم جلس بجواري على
السريرة.

ماذا فعل بها عمي؟ هل رفض مجدداً أن يرد إلينا حقنا
في ميراث أبي؟

اللجنة على هذه الشراكة الأخوية التي أذلتنا!
سألتهما:

- ماذا جرى؟ أمي؟ ماذا حدث لك؟

أجابني عمي بهدوء:

- الأمر لا يخص أمك يا مايكل... إنه يخص عيسى.

- عيسى؟

- لا أدري ماذا أقول. وسائل التواصل الاجتماعي كلها

تتناقل الخبر، ألا تفتح الفيسبوك هذا؟

- عن أي خبر تتحدث؟ هاتفي مغلق منذ يومين. لا طاقة

لدي للتواصل مع أحد.

قالت أمي بصعوبة:

- إنها صابرين، حاولت قتل بهيج القدر لأنه اعتدى على

عيسى.

تحمل كلمة الاعتداء الكثير من المعاني، ولكنني كنت

أعلم جيداً أي معنى تقصده.

أعرف ما الذي يقدر هذا القدر على فعله بمن هم في

سني.

ارتعشت وبكيت بحرقة، ربت عمي على كتفي وكذلك

أمي، ثم قالت:

- وجدت الشرطة مقاطع له على حاسوبه وهو ينتهك

القاصرين، واكتشفوا أنه هرب من كندا واستقر في مصر

بسبب قضية رفعها عليه شاب اسمه فريدريك لوبلان، لأن
بهيج تحرش به. حبيبي، أنا أمك، كنتَ تقضي الوقت
أنت وعيسى في صحبة هذا النذل، هل... هل آذاك؟

نظرت إلى أمي ولم أجد صوتي، ولكن عمي ربت على
ظهري، وقال بحنان لا آلفه منه:

- عزيزي، لا تخف. نحن أهلك وعائلتك. لو بهيج هذا
فعل أي شيء فقط أخبرنا، لقد تقدم عيسى ببلاغ ضده،
سنفعل مثله وسنأخذ لك حقه. هل حاول بهيج أن
يعتدي عليك بأي شكل؟

حدث أكثر شيء لم أتوقعه قط، ولم أود يوماً أن أقوم
به.

بكيت أمام عمي وتحررت صرختي بعد سنين من
الكبت، فأخذت أهر رأسي وأصيح:

- نعم! نعم! نعم!

ألقيت رأسي على صدر عمي فضممني بشدة، بينما عانقتني
أمي من الخلف وأخذت أقول:

- منذ أربع سنوات كنت أصبح بمفردي في الصباح
الباكر، ودخلت غرفة تغيير الملابس لأستحم. جذب
ستارة الحمام ووقف أمامي عارياً وطلب مني أن أتحمسه.
حاولت أن أخرج من الحمام فلبسني بعنف ثم صفع
مؤخرتي وبعثني بـ«المخنث». لو لم أركض سريعاً خارج
الحمام لربما فعل بي ما فعله بعيسى.

تاht كلهاتي بين دموعي وصرينخي، وأنا أشعر بعبرات
أمي الحارة تسيل على كتفي وظهري وأنا أقول:
- أنا آسف، أنا آسف.

ضغط عمي على كتفي، وقال:
- لماذا تأسف يا ابن أخي؟

- لأنني جبان، لم أبلغ عنه، لم أقتص لنفسي، لم أخطر
عيسى منه. اكتفيت بالخوف من حمامات السباحة ومن
تغير ثيابي خارج المنزل. لو حدثت عيسى لما كان نهشه
الضبع.

- كنت في الثالثة عشرة من عمرك. طبيعي أن تخاف، لا
لوم عليك يا حبيبي. لدينا فرصة لإصلاح الأمر. سنشهد
مع عيسى ونرد له ولك حقك. هيا! سنذهب إلى القسم،
سنضع حدا لهذا الأذى.

لو كنت أعلم أن هذه ستكون ردة فعل أمي وعمي،
لكنت أخبرتهما بما فعله بهيج منذ سنوات، ولكني بقيت
أنكر ما حدث وأعافر لمحوه من ذاكرتي حتى غرقت في
الاكتئاب والوحدة.

الجميع يتعامل معي كمراهق نكدي ومنطو وكثيب، ترهبه
حمامات السباحة وغرف تبديل الملابس، ويمتعض من
أي تلميحات جنسية طبيعية يتبادلها الشباب.

لا أحد يعرف ما حدث لي ولا أسباب رهابي.

بمجرد أن حكيت لعائتي شعرت وكأن جبلاً رفع عن صدري.

طيلة الطريق، ظل عمي يعتذر، لأنه ظن أنني مدلل وأذهب إلى الطبيب ماجد ملاك على سبيل الموضة، ووعدني أنه سيدفع ثمن كل ما يلزم لإتمام علاجي وتعافي نفسي.

ذهبنا إلى الضابط قطز المحمدي الذي يحقق في قضية عيسى.

دخلت أنا وعمي وقصصت عليه تفاصيل ما صار، لم يكن الأمر مخجلاً ومخزياً كما ظننت.

ربما لأني كنت أقنع نفسي بضرورة فعل ذلك دون نجل من أجل عيسى، ولكنني في الواقع، كنت أفعل هذا من أجل نفسي.

أخذ الضابط أقوالي وسألني بضعة أسئلة ثم قدم لي كوباً من الكاكاو، وربت على كتفي وبعثني بـ«البطل»، وأخبرنا أن الطلقة التي أصابت بهيج سببت له شللاً كاملاً، وأنه لن يقوى على الحراك أو النطق مجدداً.

عدنا إلى العمارة، فوجدت لارا تنزل من المصعد في لحظة وقوفنا لانتظاره.

هي أيضاً كانت تبكي، وبدأت في حالة يرثى لها بعدما عرفت ما صار لعيسى.

أخبرتني أنها حاولت التواصل معه، ولكن هاتفه مغلق

ولا تعرف له عنواناً، فطلبت مني أن نذهب معاً لزيارته.
لا أدري إن كان من الصواب أن تراه في هذه الحالة،
ولكنني اتصلت بتول وأخبرتها أنني قدمت بلاغاً ضد
بهيج، وأنتي ولارا نود أن نكون بجوار عيسى في هذه
المرحلة العسيرة.

سمعتها تحدث عيسى ثم رحبت بمجيئنا.

فتحت لنا مريم الباب وعانقتنا بحنان ودفء، ثم قبلت
وجنتي لارا وامتدحت حسنهما.

لم يكن والد عيسى موجوداً، ولا أدري إن كان هرب
من المنزل أم هم طردوه، ولكن أمي قالت لي إن طنط
صابرين طلبت منه الطلاق.

كان كل من في البيت واجم الوجه.

شعرت بغربة في الشقة في غياب طنط صابرين التي
كانت تلقاني كل مرة بابتسامة مسالمة ومحبة حقيقية
وكميات لا تحصى من الطعام والحلوى والمشروبات.

أوصتنا بتول بأن ننتقي حديثنا وألا نفتح عيسى في
الأمر، إذا أراد هو الكلام سنترك له مساحة للحديث.

دخلنا إلى غرفته. كانت أضواؤها خافتة، وعيسى يجلس
على مقعد البين باج المفضل لديه وكلمه يجلس على حجره.

كانت الغرفة نظيفة وتفوح منها رائحة معطر. أعتقد أنهم
عطروها من أجل لارا فحسب، فدايماً ما أجد غرفة عيسى
مكياً للقمامة في كل زيارة إليه!

دخلت أولاً ثم لارا، فابتسم لنا ابتسامة باهتة وأشار كي
نقترب.

كانت الندبات والكدمات تملأ وجهه بشكل لم يستوعبه
عقلي، حتى غمر الكمد قلبي بسبب حال صديقي.

وضعت أمامه علبة المعكرونة التي اشتريتها له من مطعمنا
المفضل، وكأني أقدم إليه قرباناً.

لا أدري ماذا أقول!

تبادل ثلاثتنا النظرات، وطال الصمت، حتى وضعت
يدي على كتف رفيق طفولتي وقلت:

- كان بهيج سبب رهابي من حمام السباحة. لقد
حاول... حاول معي... اليوم قدمت بلاغاً إلى الشرطة.
لست الوحيد يا عيسى.

لم يكن من المفترض أن أشير إلى الأمر، ولكن كان
يجب أن أخبره أنه ليس بمفرده، ليس الحالة صفراً.

ربت على يدي بامتنان ثم فرت دموعه، ولم يتمالك نفسه
من بعدها فبكي.

عانقته لارا، فطوق ذراعيه حولها وأخذ يبكي ويرتعش
في حضنها، وهي تقبل رأسه وتهمس إليه:

- أحبك. لن نتركك وحيداً، نحن نحبك، نحن معك.

كانت ناضجة وحنوناً وبليغة.

تمكنت لارا من قول الكلمات الصحيحة في الوقت
الصحيح، واستطاعت أن تحتويه كما لو كانت لها خبرات

أمهات الدنيا وحنانهن الرؤوم.

لا ندري كيف سينتهي الأمر! هل سيحاكم بهيج هنا أم سيسلمونه إلى كندا أم سيجد محاميه حجة للدفاع عنه؟

ما نعلمه علم اليقين أن في اليوم الذي صرخ فيه عيسى ونطق بما جرى له، أصيب بهيج بالشلل والخرس.

إنها سخرية القدر!

قد نشجع المزيد من ضحايا بهيج وأمثاله بالإبلاغ عما أصابهم، حتى وإن لم يمتلكوا ما يكفي من الدعم للإشارة إلى المعتدين عليهم، على الأقل سيعلمون أنهم ليسوا الوحيدين الذين تعرضوا لشكل من أشكال العنف الجنسي. أمضيت مراهقتي المبكرة في الخوف والذعر والاكتئاب والبكاء.

خفت من وصمة المجتمع ومن تبعات إعلاني عما جرى لي، خفت من أن يلقي عمي اللوم عليّ، من أن تخشى أمي الفضيحة فتأمرني بالصمت، من أن يتجنب باقي زملائي التعامل معي أو تنفر مني الفتيات، ولا أحظى أبداً بأي علاقة عاطفية صحية لأنني فتى تعرض للتحرش.

لو كنت وجدت شخصاً يخبرني بالألا تخاف، لست وحيداً، من حقدك أن تكون ضحية، الفضيحة للجاني وليست للمجني عليه، لربما أمضيت هذه السنوات في التعافي عوضاً عن تضييعها في الندب والنحيب والانعزال. قبل أن يتوفى أبي - الله ينيح نفسه - بثلاثة أيام، أخبرني

قصة:

كانت هناك مجموعة من الضباع الضارية تعيش فساداً في الغابة.

في ليلة، انقضت أحدها على شبل من أشبال الأسد ملك الغابة وأكله حياً.

وصل الخبر المفجع إلى الملك، فسأله وزيره: «أنحذر الحيوانات؟».

زار الأسد وقال: «لا! أتود أن تعرف حيوانات الغابة أن ملكها عجز عن حماية أشباله من الضباع؟ أخبر الحيوانات أن ابني مات غرقاً في النهر».

في الليلة التالية، انقضت الضباع على أشبال باقي الأسود كل على حدة، وآثرت الأسود جميعاً الصمت خوفاً من أن ينعتها أهل الغابة بالجن والضعف، دون أن تعرف الأسود أنها جميعاً لقيت المصير نفسه.

صارت الضباع تنهش الأشبال دون حساب، حتى خلت الغابة من الأشبال، وبدأت الضباع تأكل الأسود الكبيرة.

فني جنس الأسود كله، بما فيه الملك!

انتقلت الضباع إلى غابة جديدة، وقطعت الطريق على أسد يسير في صحبة ابنه.

هجمت على الشبل، لكن الأسد زار وتصدى لها، ونبه الأسود الأخرى إلى أن هناك مجموعة من المعتدين.

تكاثفت الأسود، وهجمت على الضباع الضارية، ففتكت بها ونثرت عظامها في الطرق، لتكون عبرة لغيرها من الضواري.

انتهى أبي من سرد القصة، فعلمت:

- نعم، يا أبي. إن التعاون خير فضيلة.

- ليس هذا المغزى الوحيد من القصة يا مايكل. الأسد الأول زار بالكذب وتستر على الجريمة التي حدثت في حق ابنه. أما الأسد الثاني فزار وطلب العون حتى ينجو بابنه وأهله أجمعين. ليس كل من زار تحسبه أسداً جسوراً يا بني.

- المغزى من القصة ألا نكذب على من حولنا يا أبي؟

- بل المغزى أن نتعلم شجاعة طلب العون.

لم أتأثر بالقصة وقتها. شعرت بأنها نسخة سوداوية من فيلم «الأسد الملك سيمبا»، فتجاهلت عظمتها.

لم أتذكر تفاصيل هذه القصة التي اختار أبي أن تكون آخر نصيحة يعطيها لي قبل وفاته في حادث سير، حتى هذه اللحظة.

اللحظة التي قررت فيها أنا وعيسى ولارا أن نتعاضد حتى نزع بهيج في السجن، ولتذهب أساطير المجتمع عن الرجولة والنخوة إلى الجحيم.

اليوم، سنكسر دائرة الخزي ووشم ضحايا العنف الجنسي بالعار.

اليوم، سيزار جيلي ويقضي على الضباع الضارية.



خاتمة

تشير أحدث إحصائيات منظمة الصحة العالمية إلى أن واحدة بين كل ثلاث إناث، وواحدًا بين كل ستة ذكور حول العالم، يتعرضون للعنف الجنسي بمختلف أنواعه وهم تحت سن السادسة عشرة.

٣٪ فقط من ضحايا العنف الجنسي من الذكور، يبلغون عن الأمر للسلطات.

تؤكد الدراسات الحديثة أن أغلب الذكور يدخلون في حالة من الإنكار النفسي قد تستغرق عشرين عامًا، حتى يتمكنوا من الاعتراف بأنهم كانوا ضحايا للعنف الجنسي في مرحلة من حياتهم.

من أجل هؤلاء الناجين والناجيات جميعًا، كتبتُ هذه الرواية.

شكر خاص

دكتور فيرن جرین

البروفيسور شانون ماكري

البروفيسور آدم دين

الأستاذ دانيال كابلان

رو

نورا تميم

سيلفيا يوسف

آرون براون

جاك نويل

جيمي ماي

مايك شوركين

نولان آدمز



عن الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة «ليسيه الحرية» في المعادي، ثم في كلية «الألسن» جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدر لها: رواية «قضية ست الحسن» (تحقيقات نوح الألفي - ١، ٢٠١٨)، والرواية القصيرة «ثلاثة عشر» (٢٠٢٠)، ورواية «روك آند رول» (٢٠٢٠)، ورواية «صديقي السيكوباتي» (٢٠٢١)، و«قضية لوز مر» (تحقيقات نوح الألفي - ٢، ٢٠٢٢)، ورواية «دليل جدتي لقتل الأوغاد» (٢٠٢٣).

للتواصل مع الكاتبة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: [www.facebook.com/](http://www.facebook.com/MirnaElMahdyWriter)

MirnaElMahdyWriter

Twitter: @Mirna_EL_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads: [ميرنا المهدي](#)

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة:



ولكنني أشرت إليها ألا تنهض ولففت إصبعي بمنديل
السفرة وأنا أصبح في أبي:

- لقد أخبرتني منذ عشر سنوات أن وليد الكيلاني مات
بالإيدز. وأنا صدقتك، صدقتك لأنني غبية... أنا غبية!
علقت أُمي بخنوعها المعهود:

- حبيبتى اهدئي، نحن...

- أنتِ تواطأتِ معه. صرتِ تكذِبين مثله يا أُمي؟
صرخ أبي:

- نعم، تواطأتِ معي لنحميكِ من الشياطين التي تتكالب
عليكِ وتوسوس لكِ بفضيحتنا.
سألنا جدتي:

- أي فضيحة؟ عمّ تتحدثون؟ من وليد هذا؟

- هيا يا أبي! أخبر أمك من يكون وليد الكيلاني، أخبرها
ماذا فعل بي بالتفصيل وما الذي فعلته أنت في المقابل.
- ماذا فعلت بكِ؟ أنا سترتكِ.

- لم أكن مفضوحة!

- هذا لأنني تداركت الأمر وأنقذتك!

- بل دفنتني حية! أخرستني!

- ستركِ الرب. لم يعرف أحد ما صار وأنتِ تصرين على
المجاهرة؟

- المجاهر هو الذي يسير بين الناس مختالاً بمعاصيه وذنوبه،
أنا لم أرتكب أي ذنب. طالبت بحقي الذي أحله الشرع
وسنه القانون لأمثالي، ولكنك منعتني من استرداد حقي.
- أي حق؟ أتسترد الحقوق بعد قرابة العشرين عاماً؟ الجميع
نسي الأمر.

- ولكنني لم أنس، لم ولن أنسى أبداً.
- كفى تشبثاً بدور الضحية. أنت تفسدين حياتك
بكامل إرادتك وكأنك الفتاة الوحيدة بالعالم التي تعرضت
للتحرش!

صاحت جدتي:

- تحرش! أي تحرش؟ من لمس حفيدتي؟

صرخت في أبي قائلة:

- وهل لأنني لست الوحيدة التي تحرش بها معها، يجب
أن أتعامل مع الأمر بطبيعية، وكأن الأمر ليس جريمة
يستحق وليد وأمثاله أن يعاقبوا عليها؟

- قررت الإبلاغ عنه منذ عشر سنوات فحسب، بأي
دليل؟ ماذا ستستفيد من فضيحتنا؟ لقد نجاك الله
وأبقاك عذراء بكرًا وأنتِ تصرين على إغراقنا في الوحل.
- لقد غرقت في الوحل حتى أنفك يا أبي لحظة أن
تنازلت عن حقي.

- احرسي يا سافلة! لقد أخذت لكِ حقك منه.

- نعم، أنت محق، لقد صفعته. يا لك من بطل! أتعرفان

كم فتاة مثلي تعرضت لتحرش وليد بها، لأنكما جبانان
ورفضتما الإبلاغ عما فعله بي!

- يا قليلة الأدب! أنا لم أبلغ عنه لأحميكِ.

- حقًا؟ وكيف ذلك؟

- لأنه أخبرني أنك أنتِ التي أصررت على الاختلاء
به في غرفة المدرسين، وطلبتِ منه أن يتحسسك. نحن
أهلك ولن نصدق اقتراءه عليكِ، ولكن الناس سيصدقون
كلامه. أتودين أن يعاملك الجميع على أنك عاهرة؟ ماذا عن
زوجك المستقبلي؟

- فليذهب الأزواج والرجال جميعًا إلى الجحيم!

- حسنًا، أنتِ اخترت العنوسة بإرادتك. ماذا عن
أختك؟ أكان بهيج يتقدم ليتزوجها إذا عرف أن أختها
أغرت مدرستها ودفعته إلى لمسها؟

- كفى كذبًا! أنتِ صدقته، صدقت أن ابنتك ذات
الأحد عشر عامًا طلبت من مدرستها البالغ أربعين عامًا أن
ينتهكها ويتحسسها من أسفل تنورتها.

- قليلة الحياء! أنا لم أصدقها!

- إذن لماذا ختنتني يومها يا أبي؟

رأيت أمي تبكي في صمت كعادتها، بينما نظرت جدتي
إلينا جميعًا في ذهول، ثم بصقت في وجه أبي وقالت:

- لعن الله الساعة التي أنجبتك فيها. لو كان أبوك حيًّا
لأفرغ طلاقات بندقيته في رأسك، يا وغد، يا عديم النخوة!

التفتت جدتي إلى أمي، وقالت:

- وأنتِ! كيف لابنتك أن تلجأ إليك فتعلمها الصمت
وأنتِ أعلم الناس بضاوة الانتهاك.

- لم تنتهك يا حماتي، لم يحدث لها شيء. ما زالت بكرًا،

...

ضحكت ضحكة ساخرة وقلت:

- الحمد لله، ما زلت بكرًا. أهدا كل ما يهملك يا أمي؟
ألا نفقد عذريتنا حتى لو سنفقد في سبيل ذلك سلامة
روحنا؟ لا يهم إن كنتما اعتديتما على حرمة بدني
واقطعتما منه قطعة لأن من تحرش بي أقنعكما بأنني
أغريته. ما يهم أن غشاء بكارتي لم يفض وأني لن
أضحكما ليلة زفاني.

قالت جدتي لوالدي:

- يا عاري! خسيس يتحرش بابنتك يا منتصر فتركه يحيا
ويأكل ويشرب؟ حقًا، لقد مات آخر رجل بهذه العائلة
في ١٩٧٣. رجل! الأمر لا يحتاج إلى رجل يا منتصر،
بحق خالق الخلق، لو كنت أعرف ما أصاب حفيدتي،
لكنت قتلت وليد هذا بيدي ووقفت أزغرد على جثته!
كيف ستقف أمام الله يوم نبعث يا منتصر؟ ماذا ستقول
له حين يسألك عن حق بنيتك؟ ألهذا تضطهدها؟ لأنها
تذكرك بانعدام مروءتك؟

نهضت جدتي وقبّلت رأسي ويدي، ثم قالت:

- حَقَّ عَلِيٌّ يَا بِنْتِي. وَاللَّهِ، إِنْ مَا تَقْصِيهِ مِنْ ظَفَرِ أَصْغَرِ
إِصْبَعٍ فِي قَدَمِكَ لَفِيهِ مِنَ الْمَرْوَةِ مَا يَفِيضُ عَمَّا يَمْلِكُهُ ابْنِي!
فَقَدْتُ السَّيْطِرَةَ عَلَى نَفْسِي وَبَكَيْتُ بَيْنَ ذِرَاعِي جَدَّتِي
الَّتِي عَانَقْتَنِي بِحَنَانٍ.

غَضِبَ أَبِي وَقَلْبُ صَحْنِ طَعَامِهِ، وَنَهَضَ عَنِ السَّفَرَةِ وَهُوَ
يَتَمُّ بِالسَّبَابِ وَاللَّعْنَاتِ.

اقْتَرَبْتُ أُمِّي لِتَعَانِقَنِي، وَلَكِنْ جَدَّتِي صَاحَتْ فِيهَا:

- أَنْتِ بِالذَّاتِ، حَسَابِكَ مَضَاعِفٌ. اتَّبِعِي زَوْجَكَ،
فَلِيحْشِرْكَمَا اللَّهُ مَعًا، اتَّبِعِيهِ!

خَافَتْ أُمِّي مِنْ صِيَاحِ جَدَّتِي وَتَبَعَتْ أَبِي إِلَى غُرْفَتِهِ، ثُمَّ
سَمِعَتْهُ يَصِيحُ فِيهَا.

ظَلَّتْ جَدَّتِي تَعَانِقَنِي وَتَقْبَلُ رَأْسِي وَيَدِي وَهِيَ تَكَرِّرُ:
- آسَفَةٌ يَا بِنْتِي، حَقَّ عَلِيٌّ.

لِقَرَابَةِ عَقْدَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ، لَمْ أَرِدْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ،
اعْتِدَارًا وَقِصَاصًا وَشَعُورًا بِالْمُوَازَرَةِ.

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ كِبْتَ مِشَاعِرِي وَالتَّسْتِرَ عَلَى مَا صَارَ
سَيَكْسِبَانِي قُوَّةً أَلَا يَشْفُقُ عَلَيَّ أَحَدٌ، وَلَكِنْ بِمَجْرَدِ أَنْ
بُحْتُ بِتَفَاصِيلِ مَا حَدَثَ، وَقَابَلْتُ جَدَّتِي وَهْنِي وَضَعْفِي
بِاحْتِضَانٍ دَائِيٍّ، شَعُرْتُ بِرَاحَةٍ.

أَعْلَمُ أَنَّي لَمْ أَتَعَافَ بَعْدَ، رُبَّمَا سَأْظَلُّ أَكْرَهُ الرِّجَالَ
وَأَنْعَتَهُمْ بِ«الْحَنَازِيرِ» وَأَمْتَعِضُ مِنْ مَجْرَدِ التَّفَكِيرِ فِي لِمْسِهِمْ
لِجَسْمِي لِأَخْرِ يَوْمٍ فِي حَيَاتِي.

ولكنني ولأول مرة، أشعر وكأن وطأة صدمة ما حدث لي منذ ثمانية عشر عامًا، قد خفت قليلاً.

مسحت الجدة نصره دموعي، ثم قالت لي مبتسمة:

- هيا، فلنترك هذا البيت الغم ونذهب للجلوس على النيل،
فلو رأيت وجه أبيك مجددًا، لأرسلنَّ روحه إلى المكان
نفسه الذي أرسلت إليه أشرف.

- أتعرفين أنكِ حقًا سممتِ زوجك؟

- أيتها البلهاء، بالطبع لم أسممه.

- تنفين تسميمه، ولكنك لا تنفين قتله كليًا.

- نعم، قتله لأنه كان ثرثارًا مثلك. ستخرجين معي أم

أترككِ هنا بمفردك معهما؟

عيسى

(قبل الجريمة يوم)

أخذت من ماجد كيس رقائق البطاطس بالجبنة
وزجاجة المياه الغازية.

استرخيت في مقعد البين باج الملون، فجلس على المقعد
المقابل لي.

قصصت عليه تطور علاقتي بلارا، مقابلاتنا كل صباح
للسير معاً بمحاذاة النيل، ثم ركوب السكوتر الكهربائي في
طريقنا إلى النادي والقفز في المسبح، ثم تناول الفطور
وشرب عصير الليمون بالحليب.

كنا نحب الأطعمة ذاتها من المطاعم نفسها، الموكا الباردة
وكعك الشوكولاتة من مقهى «No Deal»، آيس كريم
الزبادي بالتوت من «Gelato Amareno»، المعكرونة
الروزية بالدجاج من «O's Pasta»، وبيتزا المارينارا
المخصصة من «Maison Thomas».

ابتسم ماجد قائلاً:

- أرى أن شهيتك تحسنت.

- نعم، أعتقد أن الأمر مرتبط بها. جلوسها أمامي يفتح
شهيتي، حتى في غيابها، بمجرد أن أفكر بها أشعر بالجوع. هل
هذا يجعل مني شخصاً مفتوناً أم مفجوعاً؟

- هذا يجعل منك شخصاً مقبلاً على الحياة. مَنْ يستمتع بالطعام يستمتع بالدنيا.

- أتفق معك. بالأمس، دخلنا سينما زاوية. هي مولعة بالأفلام الإيطالية، فعلت أكثر الحركات ابتداءً وأمسكت يدها في أثناء عرض الفيلم، ولكنها وضعت رأسها على كتفي بمنتهى العفوية، كانت تفوح من شعرها رائحة الفانيلا، فغمرني شعور لم أشعر به منذ فترة طويلة، السعادة.

- هذا تقدمٌ عظيم يا عيسى.

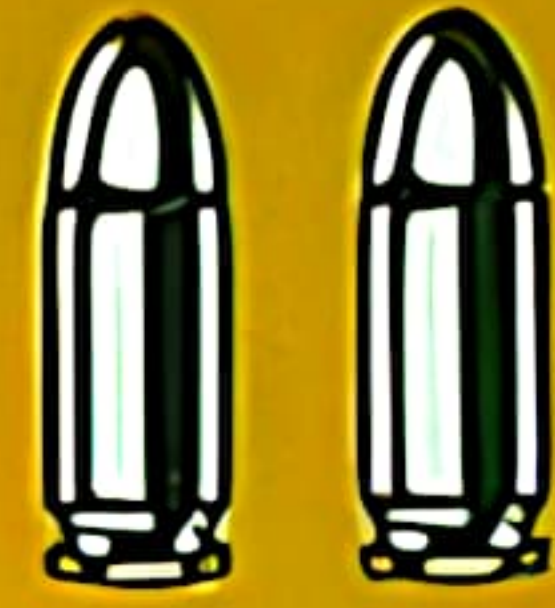
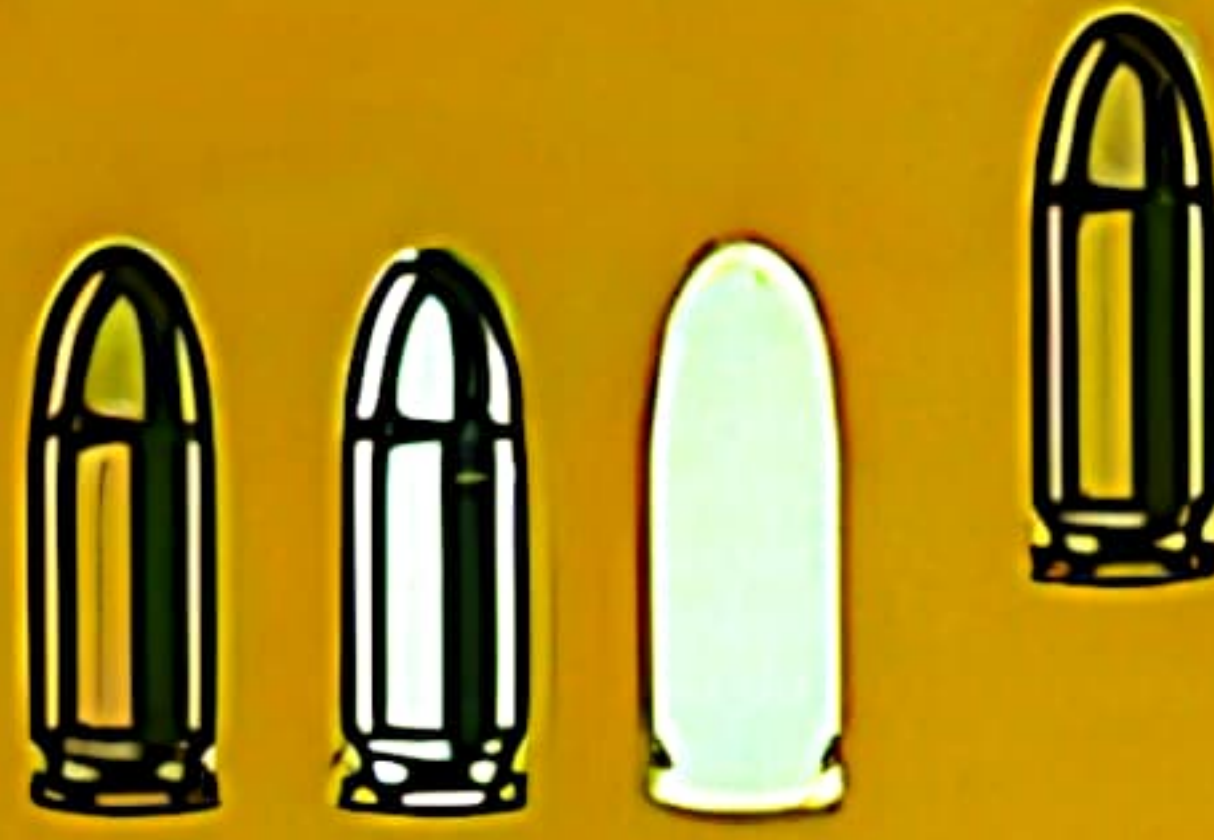
- أتظن ذلك؟

- بل أنا واثق، لارا تأثير عظيم عليك.

- لأن لديها هذا السحر النادر. إنها تعبر عن نفسها بسلاسة، تربت على كتفي حين تود أن تتعاطف معي، وتعانقني إذا تلمست حزني، وتصفق لي وتلمع عيناها فخراً إذا أصبت في شيء. لا تتردد في النطق بما يدور في خلدتها أو ما يغمر قلبها، وكأنها لا تبالي برد فعل أي شخص تجاه صراحتها ووضوحها. أعني، كيف يكون المرء شفافاً كالزجاج ولا يخاف من أن يكسر بسهولة؟

- هكذا تكون حال كل مَنْ يتصل بمشاعره ويفهم ذاته واحتياجاته. الوضوح مع النفس يجعلك تصل إلى مرحلة عليا من الصفاء النفسي.

- لم أتعامل في حياتي مع شخص يملك هذا القدر من النضوج العاطفي والتصالح النفسي. أليست باهرة؟



اكتشفتُ الليلة أن كل فرد من عائلتي قد قَتَلَ مرّة على الأقل! وقفت خلف جدتي وهي تفتح باب الغرفة لأجد جثة هذا الوغد عارية.

بالطبع لم أشك في قاتل غير جدتي! ليس لأنها الوحيدة في بيتنا التي تملك سلاحًا احترفت استعماله منذ أيام شبابه، وليس لأننا نعلم أنها قتلت زوجها السابق، بل لأنها فور أن رأت الجثة، ربتت على ظهري وقابلت نظراتي المرتقاة بابتسامة حنون وكأنها تقول لي: «جثة هذا الوغد هي هدية تفوقك في الثانوية العامة. اسعد يا عيسى!».

لم أسعد، فقد أوصيتهم ألا يقتلوه بدوني، فلا يجوز أن يُطلق غيري الرصاص عليه، لكن يبدو أنهم استغلوا غيابي في قسم قصر النيل ليمارسوا العادة الأقرب إلى قلوبهم؛ تجاهل رغباتي.

وددتُ أن أعاتب جدتي لأنها خرقت قواعدها لقتل الأوغاد، لكن نظرات هذا الضابط الذي يقف خلفنا وفي يده ليمونة منعتني من الكلام...

ضالمة
t.me/twinkling4

ISBN 978-977-86480-6-5



9 789778 648065 >

